كأنك معه

صفة حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

كأنك معه

صفة حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

الطبعة الخامسة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى شيخنا المجاهد العالم المُعلِّم، بقية السلف الصالح..

الشيخ محمد أمين سراج رَحِمَهُ ٱللَّهُ..

الذي عاش عمره المديد سخيّاً بعلمه، كريماً بخُلقه، واعظاً بحاله ومقاله، وكان ممّن تذكِّر رؤيته بالله عَزَّوَجَلَّ.

نسأل الله أن يرفع في درجات الجنة نزلَه، وأن يجزيه عنّا خير ما جزى الصالحين من عباده، وأن يجعل له أجر هذا الكتاب، ونَفْعَ من انتفع به.

مقدمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

تحية من عند الله مباركة طيبة، **وبعدُ**:

فهذه رحلة بالقلب والوجدان، نخترق فيها حجب الزمن، ونطوي حِقَب التاريخ، نُشرف فيها على أعظم سفر وأكرم مسافر، مع رسول الله ﷺ في سفره ذاك، وقد تتامَّ عمره، وبلَّغَ دعوته، وأدَّى رسالته، وأنجزَ اللهُ له وعده، وقرَّت عينه ﷺ بظهور الدين وهداية الناس.

هذه رحلةٌ مع رسول الله ﷺ، تعيش فيها معه كأنك تراه لا يغيب عنك خياله، ولا يخفى عليك شيء من حاله، فليس ثَمَّ شيءٌ من أمره إلَّا وقد حُفظ عنه ونُقل إلينا، فكأنَّا نراه رأي عين.

هذه رحلةُ أفضلِ خلق الله إلى أفضل البقاع وأحبِّها إلى الله، حيث وُلد ﷺ ونشأ، وشبَّ وتحنَّث، ونزل الوحي عليه أول ما نزل، وبلَّغ الرسالة وصدع بما أُمِر، فكانت فِجاج مكة وعَرَصَاتها مشرق النبوة ومنطلق الدعوة، فكم شهدت شِعابُها ووِهَادُها جهده وجهاده، وصبره وبلاءه، ففي كل شِعْب تاريخ، وعند كل جبل قصة.

ثم ها هو ﷺ يعود بعد أن تمت النعمة، وعظمت المنة، وكمل الدين، واجتمعت إليه أطراف الجزيرة، ها هو يعود وهو يرى أمَّته مؤمنةً به، متَّبعةً له، مُصِيْخَةً إليه، ليقيمَ لهم آخر أركان الإسلام، وليقولَ لهم: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**»(١). كما قال لهم من قبل: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»(٢).

هذه رحلةٌ نرحل فيها بأرواحنا ومشاعرنا في أعظم مسير وأقدس سفر، فذاك رسولُ الله، وتلك بلدُ الله، وهذا الحج إلى بيت الله.

فيا كلَّ مؤمنٍ برسالة رسول الله، ويا كلَّ محبٍّ لمحمد بن عبد الله، ويا كلَّ ملبٍّ لله، ضارب في الأرض أو سابح في السماء متوجِّهاً إلى بيت الله، أَحْضِرْ قلبك وشعورك ومشاعرك لتصحب بوجدانك ركبه ﷺ، فترى مشاهد تأخذ بمجامع القلوب، وسيرة عطرة تستجيش المشاعر والشعور، ولا تزال تتأمَّل في مشاهد هذه الرحلة حتى تتداعى إليك رائعات المعاني بأجمل الدروس وأعظم العبر.

إنه الحديث الحبيب عن رحلة الحبيب وهو يقود المسلمين ليريهم مناسكهم، ويعلِّمهم كيف يحجُّون بيتَ ربِّهم.

وإن زادنا في رحلتنا هذه مع رسول الله ﷺ إيماننا الموقنُ به، وحبنا الشاغِفُ له، وشوقنا اللَّاهفُ إليه، واستشعارنا عظيم منة الله علينا ببعثته فينا: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ**﴾.

فصلوات الله وسلامه وبركاته على سيِّدنا ونبيِّنا محمد النبي الصادق الأمين، وعلى آل بيته الطيِّبين الطاهرين، وسائر الصحابة أجمعين، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢٩٧)، و«سنن البيهقي» (٥/ ١٢٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٣١).

إلى مكة

جاء نصرُ الله والفتح، ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً، وسَرَبَتْ قبائلُ العرب من أنحاء الجزيرة تَؤُمُّ طَيْبَةَ الطَّيِّبَةَ، وافدةً إلى رسول الله ﷺ، فيسعهم خُلُقُه وبرُّه، ويغشاهم نورُه وهداه، فانشغل النبيُّ ﷺ بهم، وحبس نفسه لهم.

وتَقَصَّفت سنة تسع ورسولُ الله ﷺ يتلقَّى هذه الوفود تِبَاعاً، حتى سُمِّيت سنةُ تسعٍ: «عامَ الوُفود»[1].

وتنزَّلت في هذه السنة - التاسعة للهجرة - آيةُ فرض الحج على أمة محمد ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فلم يستطع رسولُ الله ﷺ الشُّخُوْصَ للحجِّ؛ لانشغاله بتلقِّي وفود الإسلام، كما أن المشركين سيحجون هذه السنة مع المسلمين بشعائرهم الجاهلية، فأخّر ﷺ حجّته لتطهير مناسك الحج من بقايا جهالات الجاهلية حتّى يحجّ بالنّاس على نقاء ملّة أبيه إبراهيم، فأرسل أبا بكر رضي الله عنه ليحجّ بالناس هذه السّنة، وأَتْبَعه عليّاً رضي الله عنه بـ«سورة براءة» يقرؤها في مشاهد الناس: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾

(١) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٥٩)، و«طبقات ابن سعد» (١/ ٢٩١- ٣٥٩).

فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ...﴾[١].

وأُعلِن في هذا الموسم تطهيرُ البيت من أرجاس الجاهلية، فـ«**لَا يَحُجُّ بَعدَ هَذَا العَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالبَيْتِ عُرْيَانٌ**».

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنت مع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنادي بالمشركين، فكان علي إذا صَحِلَ صوته[٢]، أو اشتكى حلقه، أو عيي مما ينادي ناديت مكانه»، فقيل لأبي هريرة: أي شيء كنتم تقولون؟ قال: «كنا نقول: لا يحج بعد العام مشرك، فما حج بعد ذلك العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ مدة فمدته إلى أربعة أشهر، فإذا قضي أربعة أشهر فإن الله بريءٌ من المشركين ورسولُه»[٣].

واستدار الزمان كهيئته يوم خلق اللهُ السماوات والأرض، وعادت مكة طاهرةً مطهَّرةً كما تركها إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وكأنما كانت حجَّة أبي بكر وعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بالناس تهيئةً وإعداداً لحجَّة رسول الله ﷺ: «**حجَّة الوداع**».

فلما دخلت سنة عشر آذنَ رسولُ الله ﷺ الناسَ بالحجِّ وأعلمهم أنه حاجٌّ سنتَه هذه، فلم يبق أحدٌ يقدر أن يأتي راكباً أو ماشياً إلَّا قدمَ؛ فقدم المدينة بشرٌ كثيرٌ، كلهم يحب أن يَأْتَمَّ برسول الله ﷺ، ويصحبَه في حجَّته تلك، ويعمل بمثل عمله، ويفعل ما يفعل[٤].

---

(١) ينظر: «طبقات ابن سعد» (١/ ١٦٨)، و«فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٣٧٨).
(٢) صحِل صوته: بُحَّ صوته. يُنظر: «النهاية» لابن الأثير (٣/ ١٣).
(٣) ينظر: «مسند أحمد» (٧٩٧٧)، و«صحيح ابن حبان» (٣٨٢٠).
(٤) ينظر: «مسند أحمد» (١٤٤٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨)، و«صحيح ابن خزيمة» (٢٥٣٤).

فلما كان يوم الجمعة (الرابع والعشرين من شهر ذي القَعْدة) خطب ﷺ خطبةَ الجمعة، وحوله تلك الجموع التي وافت المدينة لتحجَّ معه، فكان من أولى ما يذكِّرهم به ما جاؤوا من أجله، وهو الحج، فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الحَجَّ، فَحُجُّوا**». فقال الأَقْرعُ بنُ حابسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَوَفي كلِّ عام يا رسولَ الله؟»، فأعرض عنه ﷺ، حتى قالها ثلاث مرات، ورسولُ الله ﷺ يُعرِضُ عنه ثم قال ﷺ: «**لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَو قلتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ مَا أَطَقْتُمُوهَا، وَلَمْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا، ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّه إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ، فَخُذُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوه، الحَجُّ مَرَّةٌ، فَمَا زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ**»[(١)].

وجعلوا يسألونه وهو على المنبر، فسألوه عن مواقيت الإهلال بالحجِّ، فقال: «**يُهِلُّ أَهْلُ المَدِينَةِ مِنْ ذِي الحُلَيْفَةِ، وَيُهِلُّ أَهْلُ الشَّامِ مِنَ الجُحْفَةِ، وَيُهِلُّ أَهْلُ نَجْدٍ مِنْ قَرْنِ المَنَازِلِ، وَيُهِلُّ أَهلُ اليَمَنِ مِنْ يَلَمْلَمَ**»[(٢)].

وناداه رجلٌ وهو يخطبُ، فقال: «يا رسولَ الله، ما تأمُرُنا أن نلبسَ من الثياب إذا أحرمنا؟»، فقال ﷺ: «**لَا تَلْبَسُوا القُمُصَ، وَلَا السَّرَاوِيلَ، وَلَا العِمامةَ، وَلَا البُرْنُسَ، وَلَا ثَوْباً مَسَّهُ وَرْسٌ أَوْ زَعْفَرانٌ، وَلَا الخِفَافَ، إِلَّا أَحَدٌ لَا يَجِدُ نَعْلَيْنِ، فَلْيَلْبَسِ الخُفَّيْنِ، وَلْيَقْطَعْهُمَا حَتَّى يَكُونَا تَحْتَ الكَعْبَيْنِ**»[(٣)].

وجعل ﷺ يجيبهم ويعلِّمهم أحكام نسكهم وهو على المنبر.

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٣٠٤، ١٠٦٠٧)، و«صحيح البخاري» (٧٢٨٨)، و«صحيح مسلم» (١٣٣٧).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٥٠٧٠)، و«صحيح البخاري» (١٣٣)، و«صحيح مسلم» (١١٨٢، ١١٨٣)، و«سنن ابن ماجه» (٢٩١٥).

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (٤٨٦٨، ٥٣٢٥)، و«صحيح البخاري» (١٨٣٨)، و«صحيح مسلم» (١١٧٧).

فلما كان يوم السبت (الخامس والعشرين من شهر ذي القَعْدة)، صلَّى رسولُ الله ﷺ الظهرَ بالمدينة أربعاً، ثم خرج من المدينة متوجِّهاً إلى مكة، سالكاً طريق الشجرة، وهي الطريق التي تمر اليوم بمحاذاة محطة العَنْبرية، وثَنِيَّة المُدَرَّج، حتى تُفضي إلى ذي الحُليفة[١].

وانْجَفَلَتْ معه الجموع المؤمنة مُشاةً ورُكباناً، خِفافاً وثِقالاً، معهم النساء والولدان[٢]، حتى خرجت معه أسماءُ بنتُ عُمَيْس زوجةُ أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي في طَلْق الولادة، وخرجت معه عمتُه ضُبَاعةُ بنت الزُّبير بن عبد المطَّلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكانت امرأةً ثقيلةً وجعةً، فخشيت أن تنقطعَ، فلا تستطيع إكمال الحجِّ إذا بدأت فيه، فقالت: «يا رسولَ الله، إني أريدُ الحجَّ، وأنا شاكيةٌ»، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «**حُجِّي وَاشْتَرِطِي، وَقُولِي: اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيثُ حَبَسْتَنِي. فَإِنَّ لَكِ عَلَى رَبِّكِ مَا اسْتَثْنَيْتِ**»[٣].

سار ﷺ من طَيْبةَ الطَّيِّبةَ، واستعمل عليها أبا دُجانةَ السَّاعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وخرج منها وهي هادئة وادعة، وكأنها لم تكن المدينة التي كانت تحاصرها أحزابُ القبائل قبل خمس سنوات؛ حتى بلغ الكرب بالمؤمنين كل مبلغ، وابتُلي المؤمنون فيها وزلزلوا زلزالاً شديداً: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٣٣، ١٥٤٥، ١٥٤٦)، و«صحيح مسلم» (٦٩٠، ١٢٥٧)، و«فتح الباري» (٣/ ٣٩١).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (١٤١١٦)، و«صحيح مسلم» (١٢١٣).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٤١١٦)، و«صحيح مسلم» (١٢١٣)، و«سنن النسائي» (٢٧٦٦)، و«سنن البيهقي» (١٠١٠٨).

ما أقصر خمس سنوات في عمر الزمن، مرَّت كلمح بالبصر، فإذا المدينة المكروبة الخائفة تصبح القرية الآمنة المطمئنة التي تؤمُّها القبائل، وتَفِدُ إليها الوفود، ويلتقي فيها الحَجِيج من كل أطراف الجزيرة؛ ليسيروا في إِثْر هذا الرسول الكريم ﷺ.

أَلَا ما أعظم كرامة هذا النبي ﷺ على ربِّه يوم أقرَّ عينه بصدق موعوده: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

دَفَّ الرِّكابُ الشريف يخطو خطواته الأولى من طَيْبَةَ الطَّيِّبَةَ إلى مكةَ المكرَّمةَ في واسطة النهار؛ لتبدأ رحلة المصطفى ﷺ لـ«**حجَّة الوداع**».

وَصَلَ ﷺ إلى ذي الحُليفة، وتسمَّى اليوم: «أبيار علي»[(١)]، وهي بطحاء في وادي العَقِيق بين بطن الوادي وبين الطريق السالك إلى مكة، وهي ميقات أهل المدينة، وصلها قبل صلاة العصر، فنزل هناك، وكان نزوله ﷺ بين المسجد الذي ببطن الوادي وبين الطريق، وسطاً من ذلك[(٢)].

ويظهر أن منزله ومسجده ﷺ مما شملته توسعة مسجد الميقات اليوم.

وانتشر الناسُ معه في وادي العَقِيق، فصلَّى به العصرَ ركعتين؛ إذ هو قد أشرع في السفر، وأقام به يومه ذلك، وبات ليلته تلك[(٣)].

وكأنما أراد ﷺ الإقامة يوماً كاملاً في وادي العَقِيق؛ انتظار الناس حتى يتتابعوا إليه، ويدركه مَن بَعُد عنه، ولأنه مكان أَفْيَحُ واسعٌ يناسب نزول الناس وانتشارهم فيه، فهو أرفق بهم من ازدحامهم في المدينة[(٤)].

---

(١) وكان بينها وبين المدينة مسافة (١٠ كم) تقريباً، أما اليوم؛ فقد اشتمل عليها عمران المدينة المنورة. ينظر: «معجم المعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية» (ص١٠٣-١٠٤).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٥٨١٥، ٦٢٠٥)، و«صحيح البخاري» (١٥٣٥)، و«صحيح مسلم» (١٣٤٦).

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (١٣٨٣١)، و«صحيح البخاري» (١٥٤٧)، و«صحيح مسلم» (٦٩٠).

(٤) ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٤/ ٢١٩)، و«فتح الباري» (٣/ ٤٠٧).

وفي ليلته تلك طاف ﷺ على نسائه، وكن كلهن معه في سفره هذا[١].

وفي طوافه عليهن في هذه الليلة إيناس لقلوبهن وتطييب لأنفسهن؛ حيث سينشغل عنهن بعدُ بأعباء السفر، والقيام بأمر الناس، قيادةً ورعايةً وتعليماً.

بات ﷺ ليلته تلك تكلؤه رعايةُ الله، وتتنزَّل عليه ملائكته، ويتتابع عليه الوحي من ربِّه، فأُري في المنام مكانه الذي نزل فيه، وقيل له: «**إِنَّكَ بِبَطْحَاءَ مُبَارَكَةٍ**». فلما أصبحَ قال: «**أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتٍ مِنْ رَبِّي، فَقَالَ: صَلِّ فِي هَذَا الوَادِي المُبَارَكِ، وَقُلْ: عُمْرَةً فِي حَجَّةٍ**». وقال للناس: «**مَنْ أَرَادَ مِنْكُم أن يُهِلَّ بِحَجٍ وعُمْرةٍ فَلْيُهِلَّ، ومَنْ أَرَادَ أَنْ يُهِلَّ بِحَجٍ فَلْيُهِلَّ، ومَنْ أَرَاد أَنْ يُهِلَّ بعمرةٍ فليُهِلَّ**»[٢].

وفي ليلته هذه ولدت أسماءُ بنتُ عُمَيْس ولدَها محمدَ بنَ أبي بكر، فأرسلت زوجَها أبا بكر رضي الله عنه يسأل لها رسولَ الله ﷺ: كيف تصنعُ؟ فأمره ﷺ أن يأمرها أن تغتسلَ، وتتحفَّظ بخرقة تمنع سيلان الدم عليها، ثم تُهِل بالحج، وتصنع ما يصنعُ الناسُ، إلَّا أنها لا تطوف بالبيت[٣].

ثم تهيَّأ ﷺ لإحرامه غاية التهيُّؤ، حتى لتستشعر من تهيُّئه ذلك عِظَم العبادة التي سيدخلها، فيحتفل لها هذا الاحتفال، ويستقبلها هذا الاستقبال، فساق الهَدي، ودعا بناقة من هَديه، فأَشْعَرَها في صَفْحة سَنامها الأيمن، وسَلَتَ عنها الدم وقلَّدها[٤] نعلين[٥]؛ إشهاراً للهَدي، وتعظيماً لشعائر الله: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٥٤٢١)، و«صحيح البخاري» (٢٦٧، ٤٣٩٨)، و«صحيح مسلم» (١١٩٢).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٣٤، ١٧٨٦)، و«صحيح مسلم» (١٢١١).

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢١٨)، و«سنن النسائي» (٢٦٦٤)، و«حجة الوداع» لابن حزم (٣٨).

(٤) أَشْعَرَها: جرح سَنامها حتى يسيل منه الدم، وقلَّدها: ألبسها القِلادة، وتكون نعلًا أو نحوه، يُلَطَّخ بالدم الذي سال عند الإشعار؛ ليُعلم أنها هَدْي؛ ولهذا تُسمَّى الإبل التي تُهدى للبيت: القلائد.

(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٤٥)، و«صحيح مسلم» (١٢٤٣).

وأرسل ببُدْنِه مع ناجية الخُزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١] يسوقها إلى مكة، فقال: يا رسولَ الله، كيف أصنعُ بما عَطِبَ منها؟ أي: أُصيب في الطريق بكسرٍ أو نحوه، فقال له ﷺ: «**انْحَرْهَا، ثُمَّ اغْمِسْ نَعْلَهَا فِي دَمِهَا، ثُمَّ اضْرِبْ بِهِ صَفْحَتَهَا، ثُمَّ خَلِّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّاسِ، فليأكلُوها، وَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا أَنْتَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ رُفْقَتِكَ، وَدَعْهَا لِمَنْ بَعْدَكُمْ**»[٢].

وتجرَّد ﷺ لإحرامه واغتسل، فغسل رأسه بخِطْمِي وأُشنان[٣]، ودهنه بشيء من زيت غير كثير، ثم لَبَّد رأسه بالعسل[٤]؛ حتى يجتمع شعره ولا يتشعَّث وينتشر، وتطيَّب من كفَّي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأطيب الطِّيب عندها، وتضمَّخ بالطِّيب[٥]، فكان ﷺ وهو الطيِّب المطيَّب يَنْفَحُ طِيباً، ويُرى وَبِيصُ الطِّيبِ في مفارق رأسه ولحيته بعد ذلك[٦].

لبس ﷺ إحرامه إزاراً ورداءً، وصلَّى الظهر، ثم ركب ناقته القَصْواء، على غاية من الخشوع والخضوع والتعظيم لربِّ العالمين، متواضعاً لله، معظِّماً لشعائره[٧].

فإن سألت عن رَحْله ووطائه؛ فإن نبيَّك ﷺ قد ركب راحلته وعليها رَحْلٌ رَثٌّ وقَطِيفة لا تساوي أربعة دراهم، فلما انبعثت به راحلته استقبلَ القبلةَ، وقال: «**اللَّهُمَّ حَجَّةً لَا رِياءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةَ، لبَّيكَ حَجَةً وَعُمْرةً**»[٨].

---

(١) وورد في «صحيح مسلم» (١٣٢٦) أن صاحب بُدن النبي ﷺ هو: ذُؤيب أبو قَبِيصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي «المسند» (١٦٦٠٩، ١٧٩٧٤) أنه رجل من الأنصار، وأنه ﷺ قال لكل واحد منهم كما قال لناجية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويظهر أنهم جمع، لكثرة الإبل التي أهداها النبي ﷺ.

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (١٣٢٥)، و«سنن أبي داود» (١٧٦٢).

(٣) الخِطْميّ والأُشنان: نبات يستعمل لتنظيف الشعر والبدن عند الاغتسال. ينظر: «لسان العرب» (١٢/ ١٨٨)، (١٣/ ١٨).

(٤) أي: جعل في شعره شيئا من العسل، ليبقى مجتمعاً ولا يتفرّق.

(٥) التَّضَمُّخ: مسح الجسد بالطِّيب وغيره، والإكثارُ مِنْهُ.

(٦) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٦٦، ١٧٥٤، ٥٩٢٣)، و«صحيح مسلم» (١١٨٩، ١٢٢٩).

(٧) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٥٣)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨، ١٢٤٣).

(٨) ينظر: «سنن ابن ماجه» (٢٨٩٠)، و«صحيح ابن حبان» (٣٧٥٤).

وإن سألت عن متاعه وزاده؛ فإنه ما تحمله زاملة[١] أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكانت زاملته وزاملة أبي بكر واحدة[٢].

ولك أن تتفكَّر: ما الذي صحبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من متاع الدنيا وزينتها، إذا كان كل ما حمله هو ما قاسمه ظهر زاملة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟!

وإن سألت عن صاحبه في رحلته تلك من بين كل مَن ساروا معه؛ فإنه صاحبه من مكة إلى المدينة، يوم أن هاجر إليها قبل عشر سنين، حينما خرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وقد نذرت به القبائل وتطلَّبته، وهو يقول لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[٣].

وها هو ذا اليوم يسير مسيراً آخر هو وصاحبه من المدينة إلى مكة، والأرضُ قد وُطِّئت له، والقبائل التي كانت تطلبه قد آمنت كلُّها به، وهذه جموعها تزحف معه، وصاحبه في هذا المسير هو صاحبه في ذاك المسير؛ الصديق المبارك أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يا لله، ماذا ستقول الأرضُ التي يطؤونها، والفِجَاجُ التي يعبرونها، والجبال التي يمرون بها؟ ماذا ستقول لو نطقت، وهي تروي عظيم الفرق بين هذا المسير وذاك المسير؟ إنه أمر الله الغالب ولطفه الخفي: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

دفع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من ذي الحُلَيْفة؛ فلما استوت به راحلتُه على شَرَفِ البَيْداء[٤] رفع صوته بالذِّكر والتلبية: «**الحَمدُ لله، وسُبْحَانَ الله، وَلَا إِلَه إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أكبرُ، لبَّيكَ عُمْرةً وحجّاً، لَبَّيْكَ اللَّهمَّ لبَّيكَ، لبَّيكَ لَا شَرِيكَ لكَ لبَّيكَ، إنَّ الحَمدَ والنِّعمةَ لكَ والمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لكَ، لبَّيكَ إلهَ الحَقِّ لبَّيكَ**»[٥].

---

(١) الزاملة: البعير الذي يُحمل عليه الطعام والمتاع.

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٢٦٩١٦)، و«سنن ابن ماجه» (٢٩٣٣)، و«سنن أبي داود» (١٨١٨).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٠٠٩).

(٤) البيداء: موضع مرتفع مشرف على ذي الحليفة إلى جهة مكة، وقد امتد إليها النطاق العمراني للمدينة النبوية.

(٥) ينظر: «مسند أحمد» (٨٤٩٧)، و«صحيح البخاري» (١٥٥١)، و«صحيح مسلم» (١١٨٤، ١٢٥١)، =

وكان نسكه القِران، وكذا مَن ساق الهَدي معه من ذوي اليسار من أصحابه، كأبي بكر وعمر وطلحة والزُّبير وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأهلَّت نساؤه متمتعات بالعمرة إلى الحجِّ، وأما أكثر الصحابة، فأهلُّوا بالحجِّ مفرداً، لا يذكرون إِلَّا الحجَّ(١).

سار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تحيط به القلوب، وترمُقُه العيون، وتفديه المُهَجُ، فهو معهم كواحد منهم، لم توطَّأ له المراكب، ولم تتقدَّمه المواكب، ولم تُشق له الطُّرقات، ولم تُنصب له السُّرادقات، وإنما سار بين الناس، ليس له شارة تميِّزه عنهم، إلا بهاء النبوة وجلال الرسالة، يسير معهم وفي غِمارِهم، يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنتُ رَدِيف أبي طلحة على راحلته، وهو يسايرُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وإن ركبتي لتكاد تمَسُّ ركبةَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وهو يقول: «**لبَّيكَ حجّةً وعُمرةً**»(٢).

لقد كان الناس حوله، كما قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نظرتُ مَدَّ بصري بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من راكب وماشٍ، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرفُ تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به»(٣).

سار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بهذه الجموع الزاحفة حوله، ما بين راكب وماشٍ، تحيط به كما تحيط الهَالة بالقمر، فتنزَّل عليه جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: «**يَا مُحمدُ، إنَّ اللهَ يَأمرُكَ أنْ تَأمُرَ أصْحَابَك فَلْيَرْفَعُوا أَصْواتَهم بالتَّلْبيةِ، فَإنَّها مِنْ شِعَارِ الحَجِّ**»(٤).

= و«فتح الباري» (٣/ ٤١٢).

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٣٦٠)، و«صحيح البخاري» (١٦٥١)، و«صحيح مسلم» (١٢٣٩).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٦٣)، و«صحيح مسلم» (١٢٥١).

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (١٤٤٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٤) ينظر: «مسند أحمد» (١٦٥٦٩)، و«سنن أبي داود» (١٨١٤).

وأخبرهم ﷺ أنه «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُلَبِّي إِلَّا لَبَّى مَنْ عَنْ يَمِينِهِ، أَوْ عَنْ شِمَالِهِ مِنْ حَجَرٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ مَدَرٍ، حَتَّى تَنْقَطِعَ الأَرْضُ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا**»(١).

فارتجّتْ الصحراء، وتجاوبت الجبال بضجيج الملبِّين وهتافهم بتوحيد ربِّ العالمين: «**لَبَّيكَ اللهمَّ لبَّيكَ، لبَّيكَ لَا شَريكَ لَكَ لبَّيكَ، إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لَكَ والمُلكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ، لبَّيكَ إِلَهَ الحقِّ لبَّيكَ**»(٢).

وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يزيدون في تلبيتهم: «لبَّيكَ ذا المعارج، لبَّيكَ ذا الفواضل، لبَّيكَ وسعديك، والخيرُ في يديك، والرَّغباءُ إليك والعملُ، لبَّيكَ ذا النَّعماء والفضل الحسن، لبَّيكَ مرهوباً منك ومرغوباً إليك، لبَّيكَ حقّاً حقّاً، تعبُّداً ورِقّاً»(٣). فلم يَرُد عليهم رسولُ الله ﷺ منه شيئاً، ولزم ﷺ تلبيته(٤).

زحفت تلك الجموع على هذه الحال؛ هتافٌ بالتلبية، وعَجِيجٌ بالذِّكر، وإعلانٌ بشِعار الحجِّ، فلم يبلغوا الرَّوحاء حتى بُحَّتْ أصواتهم من التلبية(٥).

أطياف الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:

أما رسولُ الله ﷺ فهو يقطع هذه الفَيافيَ الفِسَاحَ، وكأنما جبالها ووِهادها وآكامها وأوديتها تروِي له خبرها، وتحدِّثه بمَن مرَّ بها، فتراءت لرسول الله ﷺ أطياف الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين ساروا يَؤمُّون هذا البيت قبله، كأنما يراهم أمامه، ويرافقهم في مسيره.

---

(١) «جامع الترمذي» (٨٢٨)، و«صحيح ابن خزيمة» (٢٦٣٤).

(٢) «صحيح مسلم» (١١٨٤).

(٣) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (١٣٤٧٢)، و«مسند أحمد» (١٤٧٥، ١٤٤٤٠)، و«صحيح مسلم» (١١٨٤، ١٢١٨)، و«سنن أبي داود» (١٨١٣)، و«مسند البزار» (٦٨٠٣) (٦٨٠٤)، و«المنتقى» لابن الجارود (٤٦٥)، و«مسند أبي يعلى» (٢١٢٦)، و«صحيح ابن خزيمة» (٢٦٢٦)، و«سنن البيهقي» (٩٠١٨، ٩٠٣٢).

(٤) ينظر: «مسند أحمد» (١٤٤٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٥) ينظر: «سنن البيهقي» (٩٠١٨).

فلما مر بفجِّ الرَّوْحَاء قال: «**لَقَدْ سَلَكَ فَجَّ الرَّوْحَاءِ سَبْعُونَ نَبيّاً، حُجَّاجاً، عَلَيْهِم ثِيابُ الصُّوفِ**»(١).

ولما مر بثَنِيَّة هَرْشى قال: «**أيُّ ثَنِيَّةٍ هذه؟**». قالوا: ثَنيَّة هَرْشَى. قال: «**كَأَنِّي أَنظُرُ إِلَى يُونسَ بن مَتَّى عَلَيْه السَّلامُ عَلى نَاقَةٍ حَمْراءَ جَعْدَةٍ(٢)، عَلَيْه جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ، خِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ(٣) وَهُوَ يُلَبِّي**»(٤).

ولما مر بوادي الأزرق قال: «**أيُّ وادٍ هَذَا؟**». قالوا: وادي الأزرق. قال: «**كأَنِّي أَنظُرُ إلى مُوسَى عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ مَخْطُوم بخُلْبَة، واضِعاً إصبَعَيْهِ في أُذُنَيْهِ لَه جُؤَارٌ(٥) إلى الله بالتَّلْبِيَةِ، مَارّاً بِهَذَا الوَادِي**»(٦).

ولما مر بوادي عُسْفانَ قال: «**يَا أَبَا بَكرٍ، أيُّ وَادٍ هَذَا؟**». قال: وادي عُسْفان. قال: «**لَقَدْ مَرَّ بِهِ هُودٌ وَصَالحٌ على بَكَراتٍ(٧) حُمْرٍ، خُطُمُها(٨) اللِّيفُ، أُزُرُهُم العَباءُ(٩)، وأَرديَتُهم النِّمارُ(١٠)، يُلَبُّونَ، يَحجُّونَ البيْتَ العَتِيقَ**»(١١).

---

(١) ينظر: «أخبار مكة» للأزرقي (١/ ٧٢)، و«مسند أبي يعلى» (٧٢٣١). وقد ورد موقوفا على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومثله لا يُقال بالرأي.

(٢) أي: مجتمعة الخلق شديدة.

(٣) خُلْبة: هو الليف، ويطلق على الحبل المتخذ منه.

(٤) «صحيح مسلم» (١٦٦).

(٥) أي: صوت مرتفع.

(٦) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٥٥)، و«صحيح مسلم» (١٦٦).

(٧) جمع: بَكْرة، وهي: النوق الفتيَّة.

(٨) خطمها جمع خِطام، وهو: الحَبل الَّذِي يُقَادُ بِهِ البَعِير.

(٩) العباء: جمع عباءة، نوعٌ مِنَ الأَكْسِيَة واسِعٌ فِيهِ خُطوطٌ سُودٌ كِبارٌ. يُنظر: «لسان العرب» (١٥/ ٢٦).

(١٠) جمع: نَمرة، وهي: ثياب صوف.

(١١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٠٦٧)، و«التلخيص الحبير» (٢/ ٤٦٣).

إنها شَعِيرة ضاربة في عمق الزمن، تتابع فيها أنبياءُ الله ورسلُه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فهل تتذكَّر أيها المؤمنُ وأنت تحجُّ بيت الله أنك تسير في إثر هذه القافلة العظيمة من أنبياء الله ورسله؟ في طريق سار فيه هود وصالح وإبراهيم وموسى ويونس ومحمد صلى الله عليهم وسلم، وسيتبعهم فيه عيسى ابنُ مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُهِلَّنَّ ابنُ مريمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاء، حَاجّاً، أَوْ مُعْتمِراً، أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُما جَمِيعاً**»[1].

إنك وأنت تسير هذا المَسِير تستشعر أنك ذو نسب في الهداية عريق؛ إنه مسير سار فيه أنبياءُ الله ورسلُه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فادْعُ ربَّك الذي سيَّرك في طريقهم الذي سلكوه أن يجمعك بهم في نزلهم غداً في الآخرة: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾.

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٧٢٧٣)، و«صحيح مسلم» (١٢٥٢).

في طريقه معلِّماً

سار ﷺ في طريقه معلِّماً وهادياً، يُعلِّم الناسَ مناسكهم، ويبصِّرهم بأمور حجِّهم، ويجيبهم على أسئلتهم.

سمع رجلاً يلبِّي ويقول: «لبَّيك عن شُبْرمةَ». فأرسلَ إليه فدعاه، فقال: «**أيُّها الملبِّي عنْ شُبْرمةَ، ومَنْ شُبْرمة؟**». قال: «أخٌ لي، أو قريبٌ لي». قال: «**هَلْ حَجَجْتَ عَنْ نَفْسِكَ؟**». قال: «لا». قال: «**فَاجْعَلْ هَذِهِ عَنْ نَفْسِكَ، ثُمَّ حُجَّ عَنْ شُبْرُمَةَ**»[(١)].

ورأى رجلاً حافياً يسوق بَدَنةً مقلَّدةً نَعْلاً، وقد جَهَده المشيُ، فقال: «**ارْكَبْهَا**». فقال: «يا رسولَ الله، إنها بَدَنةٌ!» فقال: «**ارْكَبْهَا**». قال: «إنها بَدَنةٌ أو هَدِيةٌ!» فقال: «**ارْكَبْهَا**». قال: «إنها بَدَنةٌ!»، فقال في الرابعة: «**وَيْلَكَ، ارْكَبْهَا، وَإِنْ كَانَتْ بَدَنَةً**». قال أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فلقد رأيتُه راكبها يسايرُ النبيَّ ﷺ، والنعلُ في عنقها»[(٢)].

وكان ﷺ يمر بالرجال يمشون، فيأمرهم بركوب هديهم الذي ساقوه معهم[(٣)].

وفي أمره ﷺ ذلك نقض ومخالفة لما كانوا عليه في الجاهلية من إكرام بُدْنِهم بترك ركوبها، كالبَحِيْرَة والسَّائِبَة والوَصِيْلَة والحام[(٤)].

---

(١) ينظر: «سنن ابن ماجه» (٢٩٠٣)، و«سنن أبي داود» (١٨١١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٧٠٦)، و«صحيح مسلم» (١٣٢٢).

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (٩٧٩)، و«فتح الباري» (٣/ ٥٣٧).

(٤) ينظر: «إكمال المعلم» (٤/ ٤١٠)، و«شرح النووي على صحيح مسلم» (٩/ ٧٣-٧٤)، و«فتح

ولمّا مروا بالرَّوحاء إذا حمارٌ وحشيٌّ عقير، فذُكِرَ ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**دَعُوهُ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ صَاحِبُهُ**». فجاء صاحبه إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله صلى الله عليك وسلم شأنكم بهذا الحمار». فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر فقسمه بين الرفاق، ثم مضى حتى إذا كان بالأثاية بين الرويثة والعرج[١] إذا ظبي حاقف في ظل وفيه سهم، فأمر رسول الله ﷺ رجلا يقف عنده لا يريبه أحد من الناس حتى يجاوزه[٢].

لقد علم ﷺ أن هذه الحيوانات قد أصيبت من صيّادين رموها، وهم يتْبعونها، فكفَّ أصحابه عنها حتى يُدركَها أصحابها الذين أصابوها.

ولقيه أبو طَلِيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «يا رسولَ الله، إن امرأتي أم طَلِيق تقرئك السلامَ، وإن لي جملاً وناقة، فقالت لي: أعطني جملك أحجُّ عليه. قلتُ: هو حَبِيْسٌ في سبيل الله تعالى. قالت: إنه في سبيل الله أن أحجَّ عليه، فأَبَيت. قالت فأعطني الناقة. قلتُ: لا أُوثِرُ على نفسي أحداً. قالت: فأعطني من نفقتك. قلتُ: ما عندي فضلٌ عمَّا أخرجُ به وأدعه لكم، ولو كان معي لأعطيتُك. قالت: فإذا فعلتَ ما فعلتَ فأَقْرِئْ رسولَ الله ﷺ منِّي السلامَ إذا لقيته، وقُلْ له الذي قلتُ لك». فقال ﷺ: «**صَدَقَتْ أُمُّ طَلِيقٍ لَوْ أَعْطَيْتَهَا جَمَلَكَ كَانَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَوْ أَعْطَيْتَهَا نَاقَتَكَ كَانَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَوْ أَعْطَيْتَهَا مِنْ نَفَقَتِكَ أَخْلَفَهَا اللهُ لَكَ**». قال: «فما يعدلُ الحجَّ معك يا رسولَ الله؟» قال: «**عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ**»[٣].

البارِي» (٣/ ٥٣٦ - ٥٣٨).

(١) الأثاية والرويثة والعرج أماكن في الطريق بين المدينة ومكّة.

(٢) ينظر: «سنن النسائي» (٢٨١٨).

(٣) ينظر: «الآحاد والمثاني» (٢٧١٠)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٢/ ٣٢٤) (٨١٦). ورُوي نحوه من حديث أم مَعْقِل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. ينظر: «مسند أحمد» (٢٧١٠٧)، و«سنن أبي داود» (١٩٨٩).

ولما مرَّ بجبل جُمْدانَ قال: «**أَيْنَ السَابِقُونَ؟**». قالوا: يا رسولَ الله، قد مضى ناسٌ وتخلَّفَ ناسٌ. فقال: «**سِيرُوا، هَذَا جُمْدانُ، سَبقَ المُفَرِّدُونَ، سَبقَ المُفَرِّدُونَ**». قالوا: ومَن المُفَرِّدُونَ يا رسولَ الله؟ قال: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيراً، وَالذَّاكِرَاتُ، الذين يُهْتَرُونَ**[١] **فِي ذِكْرِ الله، يَضَعُ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَثْقَالَهُمْ، فَيَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ خِفَافاً**»[٢].

وجُمْدان جبل على الطريق من المدينة إلى مكة، وهو أقرب إلى مكة، فهو المبشِّر بقرب الوصول إلى غاية السفر، وهي مكة، والسابق إليه قد سبق في سفره، والمُفَرِّدُ هو الذي ليس معه إلا بعيره[٣]، وهذا يكون خفيفاً سريعاً سابقاً، فلفت ﷺ البصائر إلى معنى أعظم، وهو السَّبْق في الآخرة، وأن الذين يأتون خفافاً من الأوزار فيسبقون فيها هم الذاكرون الله كثيراً والذاكرات؛ لأن إكثارهم للذكر يضع عنهم أثقال خطاياهم.

فانظر إلى لطف الإشارة، وقصر الدرس مع بلاغته، وكثرة الشواهد والمشاهد والأمثلة فيه، وحسن الربط بين معالم الطبيعة ومعالم الدِّين.

ثم انظر كيف جعل النبيُّ ﷺ مسيره في هذا الطريق عامراً بهذه اللَّفتات الرائعة، والمعاني الجميلة، فيُعلِّم الجاهل، ويصوِّب المخطئ، ويدل على فضائل الخير، ويُرَغِّب فيها بهذا الأسلوب الرَّشيق الوجيز، فصلوات الله وبركاته عليه، أتمَّها وأعظَمها.

وعثاء السفر:

سار ﷺ في الطريق بين المدينة ومكة، مسافراً يتلقَّى ما يتلقَّاه المسافرُ من وَعْثَاء السفر ونَصَب الطريق، فقد مرض ﷺ في مسيره هذا واشتد به صُداع الشَّقِيقة،

(١) أي: يُولَعُون ويكثرون.
(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٧٦).
(٣) ينظر: «تاج العروس» (٨/ ٤٨٤).

فاحتجم في وسط رأسه، في مكان يسمّى: لَحْيُ جَمَلٍ[١]، واحتجم على ظهر قدمه من وجع كان برجله[٢].

وكان مع رسول الله ﷺ نساؤه كلهن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، فلما كان ببعض الطريق نزل غلامٌ للنبي ﷺ يقال له: أَنْجَشَةُ، وكان حسن الصوت، فجعل يَحْدُو الإبل ويسوقها، فأسرعت الإبل بحُدائه، فقال له النبيُّ ﷺ: «**وَيْحكَ يَا أَنْجَشَةُ! رُوَيدَكَ سَوْقَكَ، رِفْقاً بِالقَوَارِيرِ**»[٣]. يعني النساء، أي: ارفق بهن، فقد أسرعتَ بالإبل.

فبينا هم يسيرون مسرعين، ضعف جمل أمنا صفية بنت حُيَيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأُعيي وبرك، فتقدَّمها الرَّكب، فجعلت تبكي، ورجع إليها رسولُ الله ﷺ حين أُخبر بذلك، فجعل يمسحُ دموعَها بيده الشريفة ويسكِّنها، وجعلت تزداد بكاءً وهو ينهاها؛ فلما أكثرتْ انتهرها، وأمر الناسَ بالنزول، ولم يكن يريد أن ينزل، فنزلوا وكان اليوم يوم صفية، فلما نزلوا ضُرب خباء النبي ﷺ ودخل فيه.

ولم تدر صفية ما يلقاها به رسولُ الله ﷺ إذا دخلت عليه، وخشيت أن يكون قد وجد في نفسه عليها، فانطلقت إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقالت لها: تعلمين أني لم أكن أبيعُ يومي من رسول الله ﷺ بشيء أبداً، وإني قد وهبتُ يومي لك، على أن ترْضِي رسولَ الله ﷺ عنِّي. قالت عائشة: نعم. فلبست ثيابها، ثم انطلقت إلى رسول الله ﷺ، فرفعت طرف الخباء، فقال لها: «**مَا لَكِ يَا عَائِشةُ؟ إِلَيْكِ عَنِّي إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِيَوْمِكِ**». قالت: ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء فأخبرته بالأمر، فرضي عنها. فنام ﷺ القيلولة مع أهله.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٨٣٦)، و«صحيح مسلم» (١٢٠٣).
(٢) ينظر: «سنن ابن ماجه» (٣٤٨٥)، و«سنن أبي داود» (١٨٣٧).
(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦١٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٢٣).

فلما كان عند الرواح قال لزوجته زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**يَا زَيْنَب، إنَّ بَعِيراً لِصَفِيةَ اعْتلَّ، فَلَوْ أَنَّكِ أَعْطَيْتِهَا بَعِيراً مِنْ إبِلِكِ**». وكانت زينب من أكثر أزواجه جِمالاً، ولكن أخذتها الغَيرة، فقالت: «أَنَا أُعْطِي تِلْكَ اليَهُودِيَّةَ؟!» باعتبار ما كانت عليه من قبل، فغضب رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حين سمع ذلك منها، فهجرها، فلم يكلِّمها ولم يأتها ولم يَقْسِم لها حتى رجع إلى المدينة[١].

وفي أحد منازله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في الطريق في مكان يسمَّى: العَرْجَ، جلس رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وبجانبه زوجته عائشة، وجلس صاحبه أبو بكر وبجانبه ابنته أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان أبو بكر ينتظر أن يطلع عليه غلامه بزاملته التي كانت تحمل متاعه ومتاع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فطلع الغلامُ وليس معه بعيره، فقال أبو بكر: «أين بعيرُك؟» قال: «أضللتُه البارحة». فطفق أبو بكر يضربه، ويقول: «بعيرٌ واحدٌ تضلُّه!» وجعل النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ينظر إليه ويتبسَّم، ويقول: «**انْظُرُوا إِلى هَذَا المُحْرِمِ مَا يَصنَعُ!**»[٢]. في مشهد زاخر بالرحمة والرأفة بالغلام، والاستشعار لهيبة النُّسك وعظمة الشعيرة، وإيحاء لطيف لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليرفق بغلامه.

ولما بلغ آل نَضْلةَ الأَسْلميَّ أن زاملةَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ضلت، حملوا إليه جَفْنَةً من حَيْسٍ[٣]، فأقبلوا بها حتى وضعوها بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**هَلُمَّ يَا أَبَا بَكْر؛ فَقَدْ جَاءَ اللهُ بِغَدَاء طيِّب**». وجعل أبو بكر يغتاظ على الغلام! فقال له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**هوِّنْ عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْر؛ فَإِنّ الأَمْرَ لَيْسَ إلَيْك، وَلَا إلَيْنَا مَعَكَ، وَقَدْ كَانَ**

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٥٠٠٢)، و«سنن أبي داود» (٤٦٠٢).
(٢) «سنن ابن ماجه» (٢٩٣٣)، و«سنن أبي داود» (١٨١٨).
(٣) الحَيْس: طعام تتخذه العرب من الأَقِط -وهو اللَّبن المجفَّف- والتمر والسمن، تُخلط جميعاً، وهو من طعام السفر غالباً لسهولة إعداده.

الغُلامُ حَريصاً عَلى أَلَّا يَضِلَّ بَعيرهُ، وَهَذا خَلَفٌ ممَّا كَانَ مَعَهُ». فأكل رسولُ الله ﷺ وأهله وأبو بكر وكل مَن كان مع رسول الله ﷺ حتى شبعوا(١).

ثم أقبل صفوانُ بن المعطَّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان على ساقة الناس، والبعيرُ معه وعليه الزاملة، فجاء حتى أناخ على باب منزل النبي ﷺ، فقال ﷺ لأبي بكر: «**انْظرْ هَلْ تُفْقِدُ شَيئاً مِنْ مَتَاعِكَ؟**». فقام فنظر، فقال: «ما فقدتُ إِلَّا قَعْباً كنا نشربُ فيه». فقال الغلامُ: «هذا القَعْب معي». فقال أبو بكر لصفوانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَدَّى اللهُ عنك الأمانة»(٢).

وجاء سعد بن عُبادة وابنه قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومعهما زاملة تحمل زاداً يؤمَّان رسولَ الله ﷺ، فوجدا رسولَ الله ﷺ واقفاً بباب منزله قد ردَّ اللهُ عليه زاملته، فقال سعدٌ: «يا رسولَ الله، بلغنا أن زاملتك ضلَّت الغداةَ، وهذه زاملةٌ مكانها». فقال رسولُ الله ﷺ: «**قَد جَاءَ اللهُ بزامِلَتِنَا، فَارْجِعَا بِزَامِلَتِكُما، بَارِكَ اللهُ عَلَيكُما**». ثم قال: «**أَمَا يَكْفيكَ يَا أَبَا ثَابِت مَا يُصنعُ بَنا فِي ضِيَافَتكَ مُذْ نَزلْنَا المَدِينةَ؟**». فقال سعدٌ: «المنة لله ولرسوله، والله يا رسولَ الله، الذي تأخذُ من أموالنا أحبّ إلينا من الذي تدع». فقال ﷺ: «**صَدَقْتُمْ يَا أَبَا ثَابِت، أَبْشِرْ، فَقَدْ أَفْلَحْتَ، إنّ الأَخْلَاقَ بِيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ، فمَن أَرَادَ أَنْ يَمْنَحَهُ مِنْهَا خُلُقاً صَالِحاً مَنَحَهُ، وَلَقَدْ مَنَحَك اللهُ خُلُقاً صَالِحاً**». فقال: «الحمدُ لله، هو فعل ذلك»(٣).

ولما نزل ﷺ الأَبْـوَاءَ أهدى له الصَّعْبُ بن جَثَّامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لحم صيد، وكان عَجُزَ حمار وحش يقطرُ دماً، فردَّه ﷺ، فلما رأى في وجهه كراهية رد هديته قال له

(١) ينظر: «مغازي الواقدي» (٣/ ١٠٩٤)، و«إمتاع الأسماع» (٢/ ١٠٦)، و«شرح سنن أبي داود» لابن رسلان (٨/ ٤٠٠).
(٢) ينظر: «مغازي الواقدي» (٣/ ١٠٩٣)، و«إمتاع الأسماع» (٢/ ١٠٥).
(٣) ينظر: «مغازي الواقدي» (٣/ ١٠٩٥).

معتذراً مؤانساً: «**إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ كَرَاهِيَةً لَهُ، وَلَكِنَّا حُرُمٌ لا نأكلُ الصيدَ، ولَوْلَا أَنَّا مُحْرِمُونَ، لَقَبِلْنَاهُ مِنْكَ**»[(١)].

إنه مشهد غاية في التلطُّف؛ حيث قرأ ﷺ مشاعره النفسية، وسارع إلى بيان السبب الذي جعله يرد هديته، ولم يترك مشاعره نهباً لاحتمالات مؤلمة، ثم طيَّب قلبه فأخبره بأنه سيقبل هذه الهدية لو كان غير مُحرم، فصلوات الله على مَن وصفه ربه فقال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولما قرب النبيُّ ﷺ من مكة نزل مكاناً يُقال له: سَرِف، وعرض على أصحابه مَن لم يكن ساق الهَدْي أن يجعلها عمرة، فقال: «**مَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ هَدْيٌ، فَأَحَبَّ أَنْ يَجْعَلَهَا عُمْرَةً فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ الهَدْيُ فَلَا**». ولم يعزم عليهم، فالآخذ بها والتارك لها من أصحابه [(٢)] رضي الله عنهم.

ثم دخل على عائشة رضي الله عنها فإذا هي تبكي، فقال لها: «**مَا يُبكِيكِ؟**». قالت: «والله لوددتُ أنْ لم أكن خرجتُ العام». قال: «**فمَا لَكِ؟**». قالت: «سمعتُ قولك لأصحابك، ومُنِعتُ العمرةَ». فقال: «**لَعَلَّكِ نُفِسْتِ!**». أي حضت، قالت: «نعم». فجعل ﷺ يُسَرِّي عنها ويواسيها ويتلطَّف بمشاعرها، ويقول: «**إِنَّ هذَا شَيءٌ كتَبهُ اللهُ عَلى بَناتِ آدمَ، وإِنَّما أنتِ امرأةٌ مِن بناتِ آدمَ، كَتَبَ اللهُ عَلَيْكِ مَا كَتَبَ عَلَيْهِنَّ، فَلا يَضُرُّكِ، افْعَلي مَا يَفعَلُ الحاجُّ، غَيرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالبَيْتِ حَتَّى تَطْهُرِي، فَكُونِي فِي حَجَّتِكِ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَرْزُقَكِيهَا**»[(٣)]. أي: العمرة.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٨٢٥)، و«صحيح مسلم» (١١٩٣، ١١٩٤).
(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٦٠).
(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٧٨٨)، و«صحيح مسلم» (١٢١١).

وهكذا كان ﷺ خير الناس لأهله؛ بِرّاً بهم ورعايةً لمشاعرهم، واهتماماً بما يهمهم، وهكذا كانت أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مباركة في شأنها كله، فكان ما أصابها في هذا المكان تشريعاً ظاهراً لنساء المسلمات إذا أصابهن ما أصابها. فصلوات الله وبركاته عليكم أهل البيت.

لقد سار ﷺ فكان مسيره هداية وتشريعاً، وتعليماً للمناسك، ودلالة على الخير.

في مكة

قَطَعَ رسولُ الله ﷺ الطريق بين مكة والمدينة في ثمانية أيام، تعرَّض فيها لنَصَب الطريق ووَعْثَاء السَّفَر، ولذلك لما قرب من مكة بات قريباً منها يستريح هناك، ويتهيَّأ لدخولها نهاراً، بنظافة وقوة ونشاط، وحسن ترتيب لمَن معه، ولإتاحة الفرصة للناس لمتابعته في عمله العظيم، فبات عند بئر «ذي طُوى»[١]، في المكان المعروف اليوم بـ «جَرْوَل»، أو «آبار الزاهر».

فلما أصبح صلَّى الفجر على أَكَمَةٍ غليظة عند البئر، ثم عرض على أصحابه التمتُّع، فقال: «**مَنْ أَرَادَ مِنْكم أَنْ يَجْعَلَهَا عُمْرَةً فَلْيَجْعَلْهَا عُمْرَةً**»[٢].

ثم اغتسل ﷺ لدخول مكة، فألقى عنه وَعْثَاءَ السفر، وتهيَّأ لدخولها جَامّاً نشطاً.

ثم دفع ﷺ مستقبِلاً الجبل الطويل الذي بينه وبين الكعبة، ويُسمَّى: «جبل أَذَاخِرَ»؛ لينصب إلى مكة من ثَنِيَّة كَدَاء، وهي التي تنزل اليوم على جسر الحَجُون[٣]،

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٧٤)، و«صحيح مسلم» (١٢٥٧-١٢٥٩). وينظر عن ذي طوى: «أخبار مكة» للأزرقي (٢/ ٩٦٠)، وللفاكهي (٤/ ٢٠٥).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢٤٠)، وما تقدم في نزوله ﷺ سرف، وما سيأتي في وقوفه ﷺ على المروة.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٢، ١٥٧٦).

ثم أخذ ذات اليمين منهبطا في مَسِيل الوادي متوجِّهاً إلى المسجد الحرام، وكان في مسيره ذلك لَهِجاً بالتلبية، ولم ينقطع صوته بالتلبية حتى دخل بين بيوت مكة، فاستقبله صبيةٌ من بني عبد المطَّلب، فحمل واحداً بين يديه وآخر خلفه[١].

وكان دخوله ﷺ يوم الأحد الرابع من ذي الحِجَّة، وقد دخلها عند ارتفاع الضُّحى جهاراً نهاراً؛ ليراه الناسُ فيقتدوا به، فأناخ راحلته عند باب المسجد، ثم توضَّأ وضوءه للصلاة[٢]، ودخل من الباب الذي كان يدخل منه يوم كان بمكة؛ باب بني شَيْبة[٣].

في فناء الكعبة:

دخل النبيُّ ﷺ الحرمَ، فإذا هو على ملة أبيه إبراهيم، ليس حول الكعبة صنم، ولا يطوف بها عُريان، ولم يحج إليها مشركٌ.

دخل ﷺ الحرم، فيالله ما الذي كان يتداعى في خاطره تلك الساعة، وساحة الحرم تنفسح أمام عينيه؛ هذه الساحة التي شهدت دعوته وبلاغه وبلاءه، وصبره على أذى قومه وجراءتهم عليه؟!

أَمَا دخل الحرم ليصلِّي فيه قبل نحو عشر سنين، فألقوا سَلَى الجَزُورِ على ظهره وهو ساجدٌ[٤]؟

أَمَا دخل الحرم فقام إليه ملأ من قريش، فأخذوا بمجامع ردائه فخنقوه به، حتى جاء أبو بكر رضي الله عنه فخلَّصه منهم، وهو يقول: «أَتقتُلون رجلاً أن يقولَ ربِّي اللهُ؟!»[٥].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٧٩٨).
(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦١٤)، و«صحيح مسلم» (١٢٣٥)، و«صحيح ابن خزيمة» (٢٦٩٩).
(٣) لدخول النبي ﷺ قبل الحج ينظر: «صحيح ابن خزيمة» (٢٧٠٠)، و«المعجم الأوسط» للطبراني (٤٩١)، و«سنن البيهقي» (٩٢٨١، ٩٢٠٩).
(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٤).
(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦٧٨)

هل تذكَّر ﷺ في تلك الساعة أحواله تلك في مكة، وهو يدخل الحرم وليس فيه ولا معه إلا مؤمنٌ به متَّبع لدينه، وقد صدَّقه ربه وعده، وأظهره على الدين كله.

إننا لا نستطيع الجزم بالذي كان يتداعى في خاطره ويجول في خلده ﷺ، ولكننا نستشعر من حاله أن تلك الذكريات كانت تتراءى له، وأنه كان على حال من التأثُّر وهو يَدِفُّ إلى الكعبة المشرَّفة، فإنه لما وصل الحَجَر استلمه وكبَّر، ثم فاضت عيناه بالبكاء، ثم وضع شفتيه عليه، فقبَّله وسجد عليه، وكان به حفيّاً[١]، وكان موقفاً تُسكبُ فيه العَبَراتُ[٢].

ثم طاف ﷺ بالبيت سبعة أشواط، مُضْطَبِعاً بردائه، وكان رداؤه برداً حضرميّاً أخضر[٣]، ورَمَل في الأشواط الثلاثة الأُوَل، ومشى في الأشواط الأربعة بعدها على هِينَتِهِ، وكان من دعائه بين الركنين: «﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾»[٤].

ورأى في طوافه رجلاً قد ربط يده إلى رجل آخر بسير أو بخيط يقوده به، فقطعه النبيُّ ﷺ بيده، ثم قال: «**قُدْهُ بِيَدِهِ**». قال: «يا رسولَ الله، إنه نَذْرٌ، إنا نذرنا لنقترنن حتى نأتي الكعبة» -وكان من عادات الجاهلية الاقتران في الحج- فقال ﷺ: «**أَطْلِقَا أَنْفُسَكُمَا، إِنَّ هَذَا لَيْسَ نَذْراً، إِنَّمَا النَّذْرُ مَا ابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُ الله، فَإِنَّ هَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ**»[٥].

فكان ﷺ وهو في طوافه ينقِّي شعائر الحج من كل ما ألحقه بها أهل الجاهلية، ويعيدها إلى نقائها ونصاعة المحجَّة البيضاء التي أتى بها، وتركنا عليها.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢١٨)، و«صحيح ابن خزيمة» (٢٧١٤).
(٢) ينظر: «سنن ابن ماجه» (٢٩٤٥)، و«صحيح ابن خزيمة» (٢٧١٣).
(٣) ينظر: «سنن أبي داود» (١٨٨٣)، و«جامع الترمذي» (٨٥٩).
(٤) ينظر: «مسند أحمد» (١٥٣٩٨)، و«سنن أبي داود» (١٨٩٢).
(٥) ينظر: «مسند أحمد» (٦٧١٤)، و«صحيح البخاري» (١٦٢١)، و«فتح الباري» (٣/ ٤٨٢).

فلما فرغ من طوافه مشى إلى مقام أبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو يقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾. يرفع بها صوته؛ يُسمِع الناسَ، فجعل المقامَ بينه وبين البيت -وكان المقام ملصقاً بحائط الكعبة الشرقي[١]- فصلىَّ ركعتين، قرأ في الأولى بفاتحة الكتاب، و﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثانية بفاتحة الكتاب، و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[٢].

فلمَّا سلَّم ذهب إلى زمزم، فشربَ منها، وصبَّ على رأسه، ثم عاد إلى الحَجَر فقبَّله، ومسحه بيديه، ثم مسح بهما وجهه[٣].

بين الصفا والمروة:

ثم خرج ﷺ من باب الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: «﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، **أَبدَأُ بما بَدَأَ اللهُ بِهِ**». فبدأ بالصفا، فرَقِيَ عليه، حتى نظر إلى البيت، فاستقبله، ورفع يديه الشريفتين، وهو يهتف: «**لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكبَرُ، وَسُبحَانَ الله، وَالحَمدُ لله، لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُو عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَنجَزَ وَعْدَهُ، وَنصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحزَابَ وَحْدَهُ**»[٤]. قال ذلك ثلاث مرات، ودعا في مقامه ذلك ما شاء اللهُ أن يدعو.

ثم نزل ماشياً، فلما انصبت قدماه في بطن الوادي أسرع ﷺ واشتد في السَّعْي، وهو يقول: «**لَا يُقْطَعُ الأَبْطَحُ إِلَّا شَدّاً، اسْعَوا؛ فإِنَّ اللهَ كتَبَ عَلَيْكمُ السَّعْيَ**»[٥]. واشتد ﷺ في السعي وهو الأَيِّد القوي، حتى إن إزاره ليدور على ركبتيه من شدة السعي،

(١) ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (٨٩٥٣)، و«الطبقات» لابن سعد (٢/ ١٣٦).
(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٩١)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨، ١٢٢٧)، و«سنن أبي داود» (١٩٠٥).
(٣) ينظر: «صحيح ابن خزيمة» (٢٧١٣)، و«مستدرك الحاكم» (١٦٧١).
(٤) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢١٨).
(٥) ينظر: «مسند أحمد» (٢٧٢٨٠، ٢٧٤٦٣)، و«سنن ابن ماجه» (٢٩٨٧).

وكان في الثالثة والستين من عمره المبارك، حتى إذا تجاوز بطنَ الوادي مشى، حتى أتى المروةَ فرَقِيَها، حتى نظرَ إلى البيت، فاستقبله، وكبَّرَ وهلَّلَ، ورفعَ يديه ودعا، وصنعَ على المروة كما صنعَ على الصفا[١].

وفي هذه الأثناء فشا الخبر في مكة، وتنادى الناسُ: رسولُ الله في المسجد، رسولُ الله على الصفا، رسولُ الله على المروة.. ولفظت البيوت مَن فيها، جاءت القلوب المَشُوقَةُ، والعيون الظامئة، تريد أن ترى مُحَيَّا رسول الله ﷺ، حتى خرج العَوَاتِقُ والإماء يقلن: هذا رسولُ الله، هذا رسولُ الله! وازدحم الناسُ عليه ينظرون إلى وجهه المنوَّر، فلما كثروا حوله -وكان ﷺ كريماً سهلاً، لا يُضرَبُ الناس بين يديه، ولا يقال: إليك إليك. ولا: عنك عنك- أمر براحلته فركبها؛ ليُشْرِفَ للناس، ليسألوه ويروه كلهم؛ شفقةً عليهم، ورأفةً ورحمةً بهم، فأتمَّ سعيه راكباً[٢].

فلما قضى سعيه، وكان في آخر طوافه على المروة، أمر مَن لم يسق الهَدْي من أصحابه أن يحِلُّوا من إحرامهم ويجعلوها عمرة، فقال: «**مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَهْدَى، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِشَيْءٍ حَرُمَ مِنْهُ، حَتَّى يَقْضِيَ حَجَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَهْدَى، فَلْيَطُفْ بِالبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ، وَلْيُقَصِّرْ وَلْيَحْلِلْ، ولْيَجْعَلْهَا عُمْرَةً، ثُمَّ أَقِيمُوا حَلَالاً، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ التَّرْوِيَةِ فَأَهِلُّوا بِالحَجِّ، وَاجْعَلُوا الَّتِي قَدِمْتُمْ بِهَا مُتْعَةً، وَأَهْدُوا، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْياً، فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ**»[٣].

وأمر ﷺ نساءه أن يحللن، فأحللن إلَّا عائشة رضي الله عنها؛ لما كان من حيضها، وقالت له حفصةُ رضي الله عنها: «ما يمنعك أن تحلَّ؟» قال: «**إِنِّي لَبَّدْتُ رَأْسِي، وَقَلَّدْتُ هَدْيِي، فَلَا أَحِلُّ حَتَّى أَنْحَرَ هَدْيِي**»[٤].

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢١٨).
(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢٦٤)، و«سنن أبي داود» (١٨٨٥).
(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٩١)، و«صحيح مسلم» (١٢٢٧).
(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٦٦)، و«صحيح مسلم» (١٢٢٩).

وقد تعاظم الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هذا الأمر، وشقَّ عليهم، حتى قال جابرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَبُر ذلك علينا، وضاقتْ به صدُورُنا»[(١)].

وذلك لأنهم خرجوا من المدينة يلبُّون مهلِّين بالحج مُفْرِدين، لا يذكرون إِلَّا الحج، يصرخون به صُراخاً، فكيف يفسخونه إلى عمرة؟ ولذا قالوا: كيف نجعلها متعة، وقد سمَّيْنَا الحج؟!

ثم عظم عليهم كيف يؤدُّون العمرة في أشهر الحج وأيامه؟! وكانوا في الجاهلية يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور[(٢)].

ثم كيف يُحِلُّون ويتمتعون بما يتمتع به المُحِلُّ، وليس بينهم وبين يوم عرفة إلا أربعة أيام؟ حتى قالوا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أيُّ الحلِّ؟»، قال: «**الحلُّ كُلُّهُ**». فجعلوا يتذاكرون بينهم، ويقولون: «خرجنا حجاجاً، لا نريد إلا الحج، حتى إذا لم يكن بيننا وبين عرفة إلا أربع ليال، أمرنا أن نفضي إلى نسائنا، فنأتي عرفة تقطر مذاكيرنا المني من النساء؟»[(٣)].

وأما أنه شق عليهم؛ فإنهم يرون رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أمامهم لم يحل، وإنما لزم إحرامه، وهم الذين أُشربت قلوبُهم حب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وحب متابعته فيما يأتي ويذر، ولذا تباطؤوا في إجابته، طمعاً في أن يشركوه في حاله التي هو عليها من عدم الحل.

ورأى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تباطُؤَهم وتردُّدَهم، فغضب من ذلك، ودخل على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تَعْرِف من حاله الغضب، حتى ظنَّت أن أحداً آذاه وأغضبه، فقالت: «مَن أغضبك

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٦٨)، و«صحيح مسلم» (١٢١٦).
(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٦٤)، و«صحيح مسلم» (١٢٤٠)، و«سنن البيهقي» (٨٧٣٣).
(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٣٦٧)، و«صحيح مسلم» (١٢١٦).

يا رسولَ الله، أدخله اللهُ النار؟!»، قال: «**أَوَمَا شَعَرْتِ أَنِّي أَمَرتُ النَّاسَ بأَمْرٍ، فإذا هُم يَتَرَدَّدُون؟!**»[١].

وبلغ النبيَّ ﷺ ما يقوله الناسُ، فما يدرون، أشيءٌ بلغه من السماء، أم شيءٌ بلغه من قِبَل الناس، فقام ﷺ فيهم خطيباً، فحمدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أَبِالله تُعْلِمُونِي أَيُّهَا النَّاسُ! قَدْ عَلِمتُم أَنِّي أَتْقاكُمْ لله، وأَصْدَقُكُم وأَبَرُّكُم، افْعَلُوا مَا آمُرُكُم بِهِ؛ فَإِنَّه لَولَا هَدْيِي لَحَلَلْتُ كمَا تَحِلُّون، وَلَو اسْتَقبَلتُ مِن أَمْرِي مَا اسْتدْبَرتُ لَم أَسُقِ الهَدْيَ وَلجَعَلتُهَا عُمْرَةً؛ فَحِلُّوا**»[٢].

فطابت قلوبهم، وقرَّت أعينهم بمقال رسول الله ﷺ ذلك، وقصَّروا وحَلُّوا، ولبسوا ثيابهم، وتطيَّبوا بطيبهم، وأَفْضَوْا إلى نسائهم، وسمعوا وأطاعوا، كما هو شأنهم أبداً مع رسول الله ﷺ، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

قالت أسماء بنت أبي بكر: «قدمنا مع رسول الله ﷺ مهلين بالحج فلما دنونا من مكة قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيَحْلِلْ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيُقِمْ عَلَى إِحْرَامِهِ**». قالت: «فلم يكن معي هدي فحلَلْتُ، وكان مع الزبير هدي فلم يحلل، فلبست ثيابي، وتطيبت من طيبي، ثم خرجت فجلست إلى الزبير، فقال: استأخري عني، فقلت له: أتخشى أن أثب عليك؟»[٣].

وفِعْل أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هو من الملاطفة بين الزوجين، وإنّما أخّرها الزّبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأنه خشي على نفسه أن يؤثر ذلك على إحرامه، فإن أسماء حلّت من إحرامها لأنّها تمتّعتْ، وبقي الزبير على إحرامه لأنه كان قارناً فتباعد عنها لذلك.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢١٦).
(٢) ينظر: «صحيح ابن خزيمة» (٢٩٢٦)، و«مستدرك الحاكم» (١٧٤٢).
(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢٣٦).

وعند المروة قام سُراقة بن مالك بن جُعْشُم المُدْلِجي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فنادى، فقال: «يا رسولَ الله، أرأيت متعتنا لعامنا هذا، أم لأبد الأبد؟»، فشبَّك رسولُ الله ﷺ أصابعه واحدة في أخرى، وقال: «**لَا، لَا بَلْ لِأَبَدِ أَبَدٍ، لَا، لَا بَلْ لِأَبَدِ أَبَدٍ، لَا، لَا بَلْ لِأَبَدِ أَبَدٍ، دَخَلَتِ العُمْرَةُ فِي الحَجِّ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»(١).

ثم قال سُراقة: «يا رسولَ الله، بيِّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفَّت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟»، قال: «**لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ**». قال: «ففيم العمل؟»، قال: «**اِعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّر لِـما خُلِقَ له**»(٢).

بقي أن نتذكَّر أن هذا الأعرابي المُدْلِجي الذي يسائل النبيَّ ﷺ هذه المساءلة، هو ذاك الذي كان قبل عشر سنين يركض فرسه شاهراً رمحه يلاحق النبيَّ ﷺ في طريق الهجرة، يريد أن يظفر به حيّاً أو ميتاً؛ فينال به جائزة قريش التي ستعطيها لمَن أسر محمداً أو قتله(٣)، وها هو اليوم يقف بين يدي النبي ﷺ مؤمناً يسأل عن أمر دينه وعمله وآخرته، وصدق الله: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢١٨).
(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٦٤٨)، و«سنن ابن ماجه» (٩١).
(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٩٠٦).

في الأبطح

سار ﷺ بمَن معه حتى نزل بالأَبْطَح شرقي مكة، وهو مكان فَسِيح واسع به آبار مياه لسُقيا الناس، فهو الأرفق لنزول هذا الجمع العظيم، ويشمل الأَبْطَح اليوم ما يُسَمَّى «المعَابِدَة» و«الجُمَّيزَة» إلى «الحَجُوْن»، وكان منزل النبي ﷺ فيما يُعرف اليوم بـ«الجعفرية»، وهي أدنى الأبطح إلى الحَجُون.

نزل رسولُ الله ﷺ بأصحابه، وكانوا على الحال التي وصفتها أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت -وهي تشير إلى منزلهم-: «نزلنا مع رسول الله ﷺ ها هنا، ونحن خفاف الحقائب، قليل ظهرنا، قليلة أزوادنا»[١].

وأقام ﷺ بالناس في الأَبْطَح أربعة أيام؛ يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء، وكان رفيقاً بالناس، ومن رفقه بهم أنه لم يذهب إلى المسجد الحرام والكعبة المشرَّفة خلال تلك المدة[٢]؛ لأنه لو ذهب لسارت معه هذه الجموع العظيمة، ولشقَّ ذلك عليهم، ولكن صلَّى بهم هناك في الأَبْطح، وهذا دليل من أدلة كثيرة على أن الحرم كله محلُّ مضاعفة الصلاة، وليس ذلك خاصّاً بمسجد الكعبة.

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٧٩٦)، و«صحيح مسلم» (١٢٣٧).
(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٤٥).

وكان ﷺ قريباً من الناس، والناس قريبون منه، يهابه كلُّ أحد ويدنو منه كلُّ أحد؛ يسعهم بالخلق العظيم الذي جبله عليه ربه، فحدَّث أبو جُحَيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن مشهد من مشاهده مع النبي ﷺ أيامه تلك، وكان يومها غلاماً في نحو العاشرة من عمره، فقال: «خرج رسولُ الله ﷺ بالهاجرة، وعليه حلة حمراء مُشمِّراً، كأني أنظر إلى بَرِيق ساقيه، فصلَّى بالناس ركعتين، فلما قضى صلاته قام الناس إليه، فجعلوا يأخذون بيديه فيمسحون بها وجوههم، فأخذتُ بيده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحةً من المسك».

وكان ﷺ في قبة حمراء في الأبطح، فإذا توضَّأ لصلاته خرج بلالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ببقية وَضوئه، فيفيضها على الناس، فمَن أصاب منها شيئاً تمسَّح به، ومَن لم يُصِب منها أصاب من بلل صاحبه، يبغون بركة رسول الله ﷺ، ثم يخرج بلالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعه حربة قصيرة، فيغرزها؛ لتكون سُترة للنبي ﷺ إذا صلَّى، ثم يخرج ﷺ فيصلِّي بهم[1].

وتتابع إلى رسول الله ﷺ في الأبطح مَن لم يدركه في الطريق، وكان ممن أتاه هناك عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قادماً من اليمن، وكان ﷺ قد بعثه قبل حجة الوداع ليقبض الخُمس، فقدم من سِعايته مُحْرماً بإحرامٍ كإحرام رسول الله ﷺ، فلما دخل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على زوجته فاطمة بنت رسول الله -وكانت قد حَلَّت من عمرتها- وجدها قد لبست ثياباً مصبوغة، واكتحلت، وطيَّبت بيتها، فعجب من حالها، وحِلِّها من إحرامها، وسألها عن ذلك، فقالت: «أبي أمرني بذلك». فذهب عليٌّ محرِّشاً أباها عليها، كما يصنع الشَّبَبَة من الأزواج، فأخبر رسولَ الله ﷺ أن فاطمة قد حلَّت واكتحلت ولبست ثياباً صَبِيغاً، وزعمت أنك أمرتها بذلك يا رسولَ الله. فقال ﷺ: «**صَدَقَتْ،**

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٧٦)، و«صحيح مسلم» (٥٠٣).

صَدَقتْ، صَدَقتْ، أَنَا أمَرتُها بِهِ». ثم قال لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**بِمَ أَهلَلْتَ؟**». قال: «قلتُ: اللهمَّ إني أُهِلُّ بما أَهَلَّ به رسولُك». وكان معه الهدي، فقال له: «**فَلَا تَحِلَّ**»[1].

وجاء أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله ﷺ، فقال له: «**بِمَ أَهْلَلْتَ؟**». قال: «بإهلالٍ كإهلال النبي ﷺ». قال: «**هَلْ سُقْتَ هَدْياً؟**». قال: «لا». قال: «**فَانْطلِقْ فَطُفْ بالبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفَا والمَرْوةِ، ثُمَّ حِلَّ**»[2].

ومع انشغاله ﷺ بأمر الناس، واستغراقه في القيام بشؤونهم، فإنه لم يغفل تفقد أصحابه ورعايتهم؛ فها هو يذهب إلى سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعوده من مرض اشتد به، فلما دخل عليه وجده وجعاً قد أَشْفَى على الموت، فلما رأى النبيَّ ﷺ بكى، فقال له رسولُ الله ﷺ: «**مَا يُبْكِيكَ؟**». قال: «خشيتُ أن أموت بالأرض التي هاجرتُ منها، كما مات سعدُ بنُ خَوْلة». فقال ﷺ: «**لَا إِنْ شَاءَ اللهُ**». قال: «يا رسولَ الله، إنه قد بلغ بي من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنةٌ لي، أفأتصدَّق بمالي كله؟»، قال: «**لَا**». قال: «أفأتصدق بثلثي مالي؟»، قال: «**لَا**». قال: «فالشَّطْر». قال: «**لَا**». قال: «فالثلث». قال: «**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ. وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ، إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ**». قال: «يا رسولَ الله، أُخَلَّفُ بعد أصحابي؟»، قال: «**عَسَى اللهُ أَنْ يَرْفَعَكَ، وإِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلاً صَالِحاً إِلَّا ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً، وَلَعَلَّكَ أَنْ تُخَلَّفَ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ**». قال: «يا رسولَ الله، فادع الله أن يشفيني». فوضع ﷺ يده على جبهته، ثم مسح وجهه وصدره وبطنه، ثم قال: «**اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْداً، اللهُمَّ اشْفِ سَعْداً، اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْداً، وَأَتْمِمْ لَهُ هِجْرَتَهُ**». قال سعد: «فما زلت أجد برد يده ﷺ».

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٤٤٤٠)، و«صحيح البخاري» (٤٣٥٢)، و«صحيح مسلم» (١٢١٦).

(٢) «صحيح البخاري» (١٥٥٩)، و«صحيح مسلم» (١٢٢١).

ثم قال: «**اللهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ، وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، لَكِنِ البَائِسُ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ**». يَرْثِي له رسولُ الله ﷺ أَنْ مات بمكة، ثم قال: «**اللَّهُمَّ ارْحَمْ ابنَ خَوْلة، اللَّهُمَّ ارْحَمْ ابنَ خَوْلة، اللَّهُمَّ ارْحَمْ ابنَ خَوْلة**»[(١)].

فصلوات الله وسلامه وبركاته على هذا النبي الكريم الرؤوف الرحيم، كيف يرعى أصحابه هذه الرعاية، فيمسح بيده الكريمة آلامهم، ويدعو لمرضاهم، ويترحَّم على موتاهم، ويسكب من سكينة نفسه في نفوسهم؛ فتهدأ وتهنأ.

ثم أعجب أن الصادق المصدوق ﷺ قال لسعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَعَلَّكَ أَنْ تُخَلَّفَ**». فعاش سعدٌ بعدها نصف قرن، وتوفِّي هو ﷺ بعدها بثلاثة أشهر! وأن سعداً الذي كان يقول للنبي ﷺ: «ولا يرثني إلا ابنة لي». قد وُلد له بعدها أربعة وثلاثون ابناً وبنتاً[(٢)]، ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

وهكذا بقي ﷺ في الأبطح قريباً من الناس، دانياً إليهم، معلِّماً ومبيِّناً ما يعرض لهم، فلما كان في اليوم السابع خطبَ الناسَ بعد صلاة الظهر، فأخبرهم بمناسكهم، وعلَّمهم أحكام حجهم[(٣)].

حتى إذا كان يوم التروية ركب ﷺ إلى منى ضحى، وأحرم الذين كانوا قد حلوا معه من الأبطح مهلِّين بالحج حين انبعثت بهم رواحلهم، وجعلوا ظهورهم إلى مكة، متوجهين إلى منى، فصلَّى بمنى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر؛ يقصر الرباعية ركعتين، ويصلِّي كل صلاة في وقتها[(٤)].

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٤٨٨)، و«صحيح البخاري» (٢٧٤٢، ٣٩٣٦)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٨)، و«فتح الباري» (٥/ ٣٦٤-٣٦٥).

(٢) ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٣٦)، وسمَّى ابن الجوزي له خمسة وثلاثين ولـداً. ينظر: «الشذا الفياح» (٢/ ٥٥٧).

(٣) ينظر: «صحيح ابن خزيمة» (٢٧٩٣)، و«مستدرك الحاكم» (١٦٩٣).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (١٠٨٢)، و«صحيح مسلم» (٦٩٤).

وكأنما كان هذا النفير إلى منى يوم التروية تهيئة وإعداداً للنفير إلى عرفات في يوم عرفة، ليستتم أعمال الحج ومناسكه قائداً أمته إلى إرث أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قائلاً: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**»[1]. وله في كل موقف عبرة، وفي كل مشهد آية، فصلوات الله على عبده ونبيه محمد، خير معلِّم للناس الخير.

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢٩٧)، و«سنن البيهقي» (٥/ ١٢٥).

على صعيد عرفات

أشرقت الشمسُ على خير يوم طلعت عليه الشمسُ، يوم الجمعة يوم عرفة، التاسع من ذي الحجَّة، والسابع من شهر مارس آذار، سنة عشر من الهجرة، وسار الركاب الشريف من مِنًى إلى عرفات، وجموع الحَجِيج تسير معه، سار ﷺ، ولا يظن قومُه إِلَّا أنه سيقف معهم في مزدلفة كما كان شأنهم في الجاهلية، حيث جعلوا لأنفسهم موقفاً خاصّاً يقفون فيه، ولا يقفون مع الناس في عرفة؛ إذ يرون لأنفسهم مكانة وتميزاً لجوارهم بيت الله، وأنهم بذلك لا يشاركون الناس في الوقوف في عرفات، ولكن رسول الله ﷺ الذي جاء بدينه للعالمين، ولم يجئ به لفئة من الناس يميِّزهم، ولو كانوا قومه وعشيرته، تجاوزهم وسار ليقف مع الناس؛ عملاً بقول ربه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[1].

فأفاض ﷺ إلى عرفات من طريق ضَبٍّ[2]، ومعه أصحابه، لهم ضَجِيْجٌ بالذِّكْر، فمنهم المُلبِّي، ومنهم المُهِلُّ، ومنهم المُكبِّر، لا يُنكر أحدٌ منهم على صاحبه[3].

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٥٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٢١٩).

(٢) هو طريق مختصر من مزدلفة إلى عرفة، يمر بحذاء جبل مأزم عرفة الجنوبي، وترى عن يسارك في هذا الطريق بناء مجرى عين زبيدة لاصقاً بالجبل، ويمر فيه اليوم طريق رقم (٣) و(٤) المتجه إلى عرفة. ينظر: «أخبار مكة» للأزرقي (٢/ ٨٠٢)، بتعليق د. الدهيش.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٩٧٠)، و«صحيح مسلم» (١٢٨٤).

وكان ﷺ يسير مع الناس يعرض له من شاء ويسأله من شاء، فعن ميمونة بنت كردم قالت: «خَرَجْتُ مَعَ أَبِي فِي حِجَّةِ رَسُولِ الله ﷺ فَرَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَسَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ: رَسُولُ الله ﷺ، فَجَعَلْتُ أُبِدُّهُ بَصَرِي فَدَنَا إِلَيْهِ أَبِي وَهُوَ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ مَعَهُ دِرَّةٌ كَدِرَّةِ الكُتَّابِ، فَسَمِعْتُ الأَعْرَابَ وَالنَّاسَ يَقُولُونَ، الطَّبْطَبِيَّةَ الطَّبْطَبِيَّةَ[1]، فَدَنَا إِلَيْهِ أَبِي فَأَخَذَ بِقَدَمِهِ، فَأَقَرَّ لَهُ وَوَقَفَ فَاسْتَمَعَ مِنْهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي نَذَرْتُ إِنْ وُلِدَ لِي وَلَدٌ ذَكَرٌ أَنْ أَنْحَرَ عَلَى رَأْسِ بُوَانَةَ فِي عَقَبَةٍ مِنَ الثَّنَايَا عِدَّةً مِنَ الغَنَمِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَلْ بِهَا مِنَ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَةِ شَيْءٌ يُعْبَدُ؟**» قَالَ: لَا. قَالَ: «**هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟**»، قَالَ: لَا. قَالَ: «**فَأَوْفِ بِمَا نَذَرْتَ بِهِ لله**»[2].

وعن ابن المنْتَفِق رضي الله عنه قال: «بَلَغَنِي حَجَّةُ رَسُولِ الله ﷺ حَجَّةُ الوَدَاعِ، فَاسْتَتْبَعْتُ رَاحِلَةً مِنْ إِبِلِي، ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى وَقَفْتُ لَهُ فِي طَرِيقِ عَرَفَةَ، فَإِذَا رَكْبٌ عَرَفْتُ رَسُولَ الله ﷺ فِيهِمْ بِالصِّفَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ أَمَامَهُ: خَلِّ لِي عَنْ طَرِيقِ الرِّكَابِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَيْحَهُ، فَأَرَبٌ مَا لَهُ**».

فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى اخْتَلَفَتْ رَأْسُ النَّاقَتَيْنِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُنْجِينِي مِنَ النَّارِ. قَالَ: «**أَوَذَلِكَ أَعْمَلَكَ، أَوْ أَنْصَبَكَ؟**». قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «**بَخٍ بَخٍ، لَئِنْ كُنْتَ قَصَّرْتَ فِي الخُطْبَةِ لَقَدْ أَبْلَغْتَ فِي المَسْأَلَةِ، افْقَهْ إِذاً: تَعْبُدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ، وَتَحُجُّ البَيْتَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا تُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكَ، وَتَكْرَهُ لِلنَّاسِ مَا تَكْرَهُ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكَ، خَلِّ زِمَامَ النَّاقَةِ، أَوْ خِطَامَهَا**»[3].

---

(١) الطَّبْطَبِيَّةَ: حكاية وقع الأقدام، أي: يقولون بأرجلهم طَبْ طب، وهي منصوبة على التحذير، أي: احذروا الطبطبية.

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٢٧٠٦٤)، و«سنن أبي داود» (٣٣١٤).

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (١٥٨٨٣، ٢٣١٦٤).

فلمّا وصل إلى «نَمِرَةَ» إذا قبةٌ من شعر قد ضُربت لـه هناك، فجلس فيها، حتى إذا زالت الشمس، ركب راحلته القصواءَ بعد الزوال مباشرة، في قرابة الساعة الثانية عشرة والنصف بتوقيت مكة في شهر مارس آذار، ثم نزل بها إلى بطن «وادي عُرَنَة»، وهو أرض دَمِثَةٌ[١] فسيحةٌ، يسهل اجتماع الناس عليها وجلوسهم فيها، فاجتمع الناسُ حوله في بطن الوادي، فأشرف ﷺ على الناس، وقد أمكن قدميه في الغَرْز، واعتمد بإحدى يديه على مقدَّم الرَّحْل، وبالأخرى على مُؤَخَّره؛ يتطاولُ بذلك، ونادى: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَنْصِتُوا، فَإِنَّكُم لَعَلَّكُمْ لَا تَرَوْنِي بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا**»[٢]. فأَصَاخَتْ له المسامع، واشْرَأَبَّتْ له الأعناق، وخفقت بحبه القلوب، وشخصت إليه العيون تنظر إلى محيَّاه، وتتلقَّف قوله؛ ليخطبهم خطبةً عظيمةً، جمع فيها معاقد الدين، وعصم الملة، وتعظيم الحرمات، فدوى صوته ﷺ بين أهل الموقِف، حامداً الله مثنياً عليه.

ثم قال: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، حَرَامٌ عَلَيكُم، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَدِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابنِ ربيعةَ بنِ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلب، وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِباً أَضَعُهُ رِبَانَا، رِبَا العَبَّاسِ ابْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، وإِنَّ كلَّ رِباً مَوْضُوعٌ، لكم أَمْوَالِكُمْ، لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ.**

أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ الله، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ الله، أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْراً، فَإِنَّمَا هُنَّ عَـوانٍ[٣] عِندَكُمْ، لاَ يَمْلِكْنَ

(١) الأرض الدَّمِثة: الأَرْضُ السَّهلةُ الرِّخْوةُ.
(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٢٢١٦١)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٧٦٧٦).
(٣) جمع: عانية، وهي: الأسيرة.

لأَنفسِهنَّ شَيْئاً، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئاً غَيْرَ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ، إِنَّ لَكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ حَقّاً، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقّاً، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ، فَلَا يُوطِّئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ، أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ، فَإِنْ خِفْتُمْ نُشُوزَهُنَّ فعِظُوهُنَّ، واهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ، واضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيرَ مُبَرِّحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً، وَإِنِّي قَدْ تَرَكتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعدَه إِنِ اعتَصَمْتُم بِهِ: كِتابَ الله، أَلَا وَإِنِّي فَرَطُكُمْ عَلى الحَوْضِ، وَأُكاثِرُ بِكُمُ الأُممَ، فَلَا تُسَوِّدُوا وَجْهِي، أَلَا وَإِنِّي مُسْتَنْقِذٌ أُنَاساً، ومُسْتَنْقَذٌ مِنِّي أُنَاسٌ، فَأَقُولَ: يَا رَبِّ، أُصَيْحابي؟! فَيقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعدَكَ، فَاعْقِلُوا أَيُّها النَّاسُ وَاسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي قَدْ بَلَّغتُ»[1].

ثم أقبل ﷺ على هذه الجموع يستشهدهم شهادة عظيمة، شهادة البلاغ والأداء، ويقرِّرهم بجواب السؤال إذا سُئلوا يوم القيامة؛ ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قائلاً: «**وأَنتُمْ تُسأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنتُم قَائِلونَ؟**»[2].

أَلَا ما أعظم السؤال! وما أعظم المقام! ثلاثٌ وعشرون سنةً قضاها رسولُ الله ﷺ في بلاغ ودعوة، وصبر ومصابرة، وجهد وجهاد، أُخْرِجَ في سبيل بلاغ رسالات الله من بلده، وهي أحب البلاد إليه، وقُوتل في بدر، وأُصيب في أُحد، وحُوصر في الخندق، وشَدَّ على بطنه حجرين من الجوع، وصُدَّ عن البيت، وقُتِل أقاربه وأقربُ الناس إليه بين يديه، كلُّ ذلك بلاغاً للدين وأداءً للرسالة، ومع ذلك يسأل ويستشهد على بلاغه أمته، فأجابته هذه الجموع كلُّها بالجواب الذي لا يمكن أن تجيب بغيره، وشهدت بالشهادة التي لا يحق لها أن تشهد بسواها، نطقت هذه الجموع بفم واحد: نشهد أنك قد بلَّغت

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٠٦٩٥)، و«صحيح البخاري» (٤٤٠٣، ٦٥٢٦)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨).
(٢) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

رسالات ربك، ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك. فرفع ﷺ إصبعه الشريفة إلى السماء، وجعل يَنْكُتُها إلى الناس[١]، وهو يقول: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهدْ، اللَّهُمَّ اشْهدْ**»[٢].

ونحن اليوم بعد ألف وأربعمئة سنة نشهد للرسول ﷺ بما شهد له به أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أنه قد بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وتركنا على المحجَّة البيضاء، لا يزيغ عنها إلَّا هالك، فصلَّى الله وسلَّم وبارك عليه.

وكان من عجائب هذا الموقف أن الذي كان يبلِّغ عن رسول الله ﷺ للناس، ويصرخ فيهم بمقاله، هو رَبيعة بن أُميَّة بن خلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان رجلاً صيِّتاً، يقول له النبيُّ ﷺ: «**اُصْرُخْ بِكَذا، اُصْرُخْ بِكَذا**»[٣]. فيصرخ به للناس، يُسمع مَن بَعُدَ منهم.

هذا ابن أُميَّة بن خلف الذي قُتل أبوه في بدر هَبْراً[٤] بالسيوف، وهو يقاتل رسولَ الله ﷺ، فإذا ابنه يبلِّغ عن رسول الله ﷺ ويصرخ في الناس بكلماته.. ألا إنها أنوار النبوة وهدي الرسالة، أطفأت تِرَاتِ الجاهلية[٥] في القلوب التي كانت تتوارث الحقد، وتستعر فيها حرارة الثأر، فتبدَّلت وعادت خلقاً آخر، لما هطلت عليها فيوض النبوة، فـ ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾، فإذا رسول الله ﷺ أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وقلوبهم التي بين جوانحهم؛ ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

وكان ﷺ يخطب الناس وهم يتراءَونه، ويشيرون إليه لمن لم يره، فعن سلمة بن نُبَيطٍ قال: حَدَّثَنِي أَبِي، قال: «حَجَجْتُ مَعَ أَبِي وَعَمِّي فَقَالَ لِي أَبِي: تَرَى ذَاكَ صَاحِبَ الجَمَلِ الأَحْمَرِ الَّذِي يَخْطُبُ؟ ذَاكَ رَسُولُ الله ﷺ»[٦].

(١) أي: يردِّدها إلى الناس مشيراً إليهم.
(٢) هو جزء من الذي قبله.
(٣) «صحيح ابن خزيمة» (٢٩٢٧).
(٤) الهَبْرُ: الضَّرْب والقَطْعُ.
(٥) التِّرَات: التِّبعات.
(٦) ينظر: «مسند الدارمي» (١٦٤٩).

فلمّا فرغ رسولُ الله ﷺ من خطبته أَذَّنَ بلالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنداء واحد، ثم أقام فصلَّى الظهر، ثم أقام فصلَّى العصر، ولم يصلِّ بينهما شيئاً، فصلَّى رسولُ الله ﷺ الظهر والعصر قصراً وجمعاً جمع تقديم[١].

وكأنما بكَّر ﷺ بالرواح، وقصر الخطبة وجمع الصلاة؛ ليفرغ هو والناس عشية يومهم العظيم المبارك للذكر والدعاء والمسألة.

عند جبل الرحمة:

ثم ركب راحلته، ودفع إلى عمق عرفة عند جبل إِلَالٍ، ويسمَّى اليوم: «جبل الرحمة»، فوقف على راحلته عند ذيل الجبل، وجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات والجبل بين يديه، واستقبل القبلة رافعاً يديه داعياً وملبياً[٢].

وكان ﷺ مع وقوفه في مقامه ذلك قائماً بأمر الناس، تعليماً ورعاية وتوجيهاً ودلالة، يأتيه ناسٌ من أهل نجد يسألونه عن الحج، فيقول لهم: «**الحَجُّ عَرَفَةُ**»[٣].

ويخاطب الناسَ قائلاً: «**وقَفتُ هَاهُنا، وَعَرفةُ كُلُّها مَوقِفٌ**»[٤].

وأرسل للناس وهم في فجاج عرفة ابنَ مِرْبَعٍ الأنصاريَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يصرخ بالناس: إني رسولُ رسولِ الله إليكم، يقول لكم: «**كُونُوا عَلَى مَشاعِرِكُمْ؛ فإنَّكُم عَلَى إرْثٍ مِنْ إرْثِ أَبِيكُم إبْرَاهِيمَ**»[٥].

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢١٨)، و«سنن أبي داود» (١٩٠٥).
(٢) ينظر: الحديث السابق.
(٣) ينظر: «جامع الترمذي» (٢٩٧٥)، و«سنن النسائي» (٣٠١٦).
(٤) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢١٨).
(٥) «سنن ابن ماجه» (٣٠١١)، و«سنن أبي داود» (١٩١٩).

ويخاطب الناس قائلاً: «**مَنْ لَمْ يَجِدِ الإِزَارَ فَلْيَلْبَسِ السَّرَاوِيلَ، وَمَنْ لَمْ يَجِدِ النَّعْلَيْنِ فَلْيَلْبَسِ الخُفَّيْنِ**»(١).

ويسقط رجلٌ من أهل الموقف عن راحلته عند الصخرات، فتنفصم عنقه ويموت؛ وهو رجلٌ من غِمار الناس، لا نعرف اسمه ولا قبيلته ولا بلده، ولكن ربه الذي خلقه يعلم حاله وإليه مآله، فيقول النبي ﷺ: «**اغْسِلُوهُ بِماءٍ وَسِدْرٍ، وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبَيْهِ، وَلَا تَمَسُّوهُ بِطِيبٍ، وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ؛ فَإِنَّه يُبعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ مُلَبِّياً**»(٢).

وجاء الأعراب الذين وافوا الموقِف يطيفون برسول الله ﷺ، ويدنون إليه ليروا محياه، فإذا استنار لهم وجهه، قالوا: هذا الوجه المبارك(٣).

وينزل الروح الأمين عَلَيْهِ السَّلَامُ على قلب محمد ﷺ بالوحي من ربه في هذا الموقف العظيم بهذه الآية العظيمة الشَّاذَّة الفاذَّة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾. فسُرِّي عن رسول الله ﷺ، فقرأها على الناس، معلناً كمال الدين وتمام النعمة، وعبودية البشر بالإسلام الذي رضيه لهم ربهم، ولم يرض لهم سواه، فلما سمعها عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقهها واستشعر من معناها أن مهمة رسول الله ﷺ قد انتهت بكمال الدين، وأنه يوشك أن يلحق بربه الذي أرسله، فاستعبر باكياً، فقال له رسولُ الله ﷺ: «**مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ؟**». قال: «يا رسولَ الله، أبكاني أنَّا كنا في زيادةٍ من ديننا، فأما إذا كمل، فليس بعد الكمال إلا النقصان». فقال ﷺ: «**صَدَقْتَ**»(٤).

أما رسول الله ﷺ فقد قضى عشية يومه ذلك في حال من التضرع واللهج بالدعاء، حتى ظن أصحابه أنه قد صام يومه ذلك؛ لما رأوا من انقطاعه للعبادة والدعاء، فأرسلت

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٨٤٣)، و«صحيح مسلم» (١١٧٨).
(٢) «صحيح البخاري» (١٢٦٦)، و«صحيح مسلم» (١٢٠٦).
(٣) ينظر: «الأدب المفرد» (١١٤٨)، و«سنن أبي داود» (١٧٤٢).
(٤) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٤٤٠٨)، و«أخبار مكة» للفاكهي (٧٨٠).

إليه أم الفضل بن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بقدح لبن، وهو واقف على بعيره، فشرب منه والناس ينظرون إليه[١]، وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره، حتى رؤي بياض إبطيه، باسطاً كفيه كاستطعام المسكين[٢]، منكسراً لربه عَزَّوَجَلَّ، خاضعاً خاشعاً متذلِّلًا له، مستغرقاً في مناجاته، كأنما يسارع لحظات هذا اليوم أن تفلت لحظة لا يَلْهَجُ فيها بذكر أو يُلِظُّ فيها بدعوة، حتى إنه عندما اضطربت به راحلته، فسقط خطامها تناوله بيد، وأبقى يده الأخرى مبسوطة يدعو بها[٣].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لهجاً بالثناء على الله تهليلاً وتحميداً وتلبية: «**لَا إِلَهَ إِلا اللهُ وحدَه لَا شَرِيْكَ لَهُ، لَهُ المُلكُ، ولَهُ الحـَمْدُ، وَهُوَ عَلى كُلِ شَيءٍ قَديرٌ، لَبَّيكَ اللهُمَّ لَبَّيكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبيكَ، إِنَّ الحَمْدَ لَكَ، وَالنّعمةَ لَكَ والمُلْكَ لَكَ، لَا شَرِيْكَ لَكَ، لَبَّيكَ إِلَهَ الحَقِّ لَبَّيْك**».

وكان مما دعا به عشية عرفة: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَرَى مَكَانِي، وَتَسْمَعُ كَلَامِي، وَتَعْلَمُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي، لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي، أَنَا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ، الْمُسْتَغِيثُ الْمُسْتَجِيرُ، الْوَجِلُ الْمُشْفِقُ، الْمُقِرُّ الْمُعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمِسْكِينِ، وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الْمُذْنِبِ الذَّلِيلِ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيرِ، مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ، وَذَلَّ جَسَدُهُ، وَرَغِمَ أَنْفُهُ، اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي بِدُعَائِكَ شَقِيًّا، وَكُنْ بِي رَءُوفاً رَحِيماً، يَا خَيْرَ الْمَسْئُولِينَ، وَيَا خَيْرَ الْمُعْطِينَ**»[٤].

وكأنما جاشت أشواق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، واستشرف قرب الأجل، فسُمع عشية ذلك اليوم وهو يزيد في تلبيته: «**لَبيكَ، لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الآخِرَة**»[٥].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٩٨٨)، و«صحيح مسلم» (١١٢٣).
(٢) ينظر: «المعجم الأوسط» للطبراني (٢٨٩٢)، و«المطالب العالية» (١٢٤٢).
(٣) ينظر: «مسند أحمد» (٢١٨٢١)، و«سنن النسائي» (٣٠١١).
(٤) «المعجم الكبير» للطبراني (١١٤٠٥)، و«الأحاديث المختارة» للضياء المقدسي (١١/ ٢٣٤).
(٥) ينظر: «مسند الشافعي» (٥٦٩)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٥٨٠٦).

وتقضَّت ساعات النهار، ورسولُ الله ﷺ على حاله تلك، خشوع وخضوع، ولهج بالدعاء والذكر، حتى إذا تناهى النهار دعا بأسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ليكون ردفه، فتنادى الناس يدعون أسامة، واشرَأبَّت أعناق الأعراب ينتظرون هذا الذي حظي بشرف ردف النبي ﷺ، وظنوه رجلاً من كبار أصحاب النبي ﷺ، فما فجأهم إلا وشاب أسود يتوثَّب ناقة النبي ﷺ، ثم يلتزمه من خلفه، ليكون له من بين أهل الموقف كلهم شرف الارتداف مع النبي ﷺ، فقال حدثاء العهد بالإسلام متعجبين: «ما حُبسنا بالإفاضة اليوم إلَّا من أجل هذا؟!»[(١)].

وذلك أنهم استغربوا أن يكون لهذا الفتى الأسود الذي مَسَّت العبودية أباه هذه المكانة والأهمية عند رسول الله ﷺ، حتى يناديه من بين أهل الموقف، ويخصه بشرف الركوب معه.

وكأنما كان رسول الله ﷺ بهذا الانتخاب والاختيار يعلن تحطيم الفوارق بين البشر، ويدفن تحت مواطئ راحلته النعرات الجاهلية، والفوارق الطبقية، والنزعات العنصرية؛ «**فَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ فَضْلٌ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَبْيَضٍ وَلَا لِأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى**»[(٢)].

ثم نظر ﷺ إلى الشمس، وقد تدلَّت للغروب مثل الترس، فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ**»[(٣)].

فلما آذنت الشمس بالغروب، أقبل رسول الله ﷺ على بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «**يَا بِلَالُ، أَنْصِتْ لِيَ النَّاسَ**». فأنصت الناسُ لرسول الله ﷺ؛ ليفيض على قلوبهم

(١) ينظر: «طبقات ابن سعد» (٤/ ٦٣)، و«التاريخ الكبير» (٢/ ٢٠).
(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٢٣٤٨٩)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٦).
(٣) ينظر: «مسند أحمد» (٦١٧٣)، و«مستدرك الحاكم» (٣٦٥٦).

البشرى بالفيض الغامر من رحمة الله وعفوه، قائلاً: «**مَعاشِرَ النَّاسِ، أَتَانِي جِبْرِيلُ آنِفاً، فَأَقرَأَنِي مِنْ رَبي السَّلامَ، وَقَالَ: إنَّ اللهَ قدْ غَفَر لأَهْلِ عَرَفاتٍ وَأهلِ المَشعَرِ، وَضَمِن عَنْهُم التَّبِعاتِ**[1]». فقام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «يا رسول الله، هذا لنا خاصة؟»، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**هَذا لَكُمْ، ولِمَنْ أَتَى بَعدَكُم إلَى يَومِ القِيَامةِ**». فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كثر خير الله وطاب».

(١) أي: مَا فِيهِ إِثْمٌ يُتْبَعُ بِهِ.

إلى المشعر الحرام

فلما وجبت الشمس وغاب قرصها، أشار ﷺ للناس قائلاً: «**اذْفَعُوا باسْمِ الله**»[١]. فدفع الناس معه، وفي دفعه في هذا الوقت مخالفةٌ لهدي المشركين الذين كانوا يتحرَّون الدفع من عرفة قبل غروب الشمس، فخالفهم ودفع بعد غروبها[٢].

دفع ﷺ في حَطْمَة الناس وغِمارِهم، ليس له طريق خاصٌّ، ولا موكب خاصٌّ، وإنما هو ﷺ مع الناس، وهو إمام الناس، لا يُدفع أحدٌ أمامه، ولا يُصَدُّ أحدٌ من ورائه، وقد رفع يمينه المباركة، باسطاً، يشير إليهم قائلاً: «**أَيُّها النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بالسَّكِينةِ والوَقارِ، فإنَّ البِرَّ ليس بإيجَافِ الخَيْلِ والإبِلِ**». وإذا سمع حَطْمَةَ الناس خلفه وتدافعهم وضربهم الإبل يميناً وشمالاً التفت إليهم، وأشار بسَوْطه قائلاً: «**رُويداً أَيُّها النَّاسُ، عَلَيْكُمُ السَّكِينةَ؛ فإن البرَّ لَيْسَ بالإيْضَاع**». أي: السرعة. وكان يقول ذلك وهو أول مَن فعله؛ فقد شَنَقَ راحلته وكَبَحَ زمامها، حتى إن رأسها ليصيب مَوْرِكَ رَحْلِهِ[٣] من شدة كَبْحِهِ لزمامها، حتى لا تسرع في هذا الزحام، فإذا أتى مرتفعاً أرخى لها حتى تصعد[٤].

---

(١) ينظر: «سنن ابن ماجه» (٣٠٢٤)، و«الضعفاء» للعقيلي (٢/ ١٩٦).

(٢) ينظر في مخالفة المشركين للدفع قبل الغروب: «مسند الشافعي» (ص٣٦٩)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٥١٨٤).

(٣) مورك الرحل: هي قطعة جلد يتورَّك عليها الراكب، تُجعل في مقدم الرحل، شبه المخدة الصغيرة.

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٧١)، و«صحيح مسلم» (١٢٨٢).

وكان ﷺ يسير سيراً رفيقاً هيناً، عليه السَّكينة والجلال والوقار؛ حتى قال أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما رأيت ناقة رسول الله ﷺ رافعة يديها عادية حتى وصلنا المزدلفة، وأفاض ﷺ من طريق المأزمين[١]»، وهو طريق المشاة اليوم، حتى إذا بلغ شِعب الإذخر، وهو الشِّعب الأيسر الذي دون المزدلفة، مال إليه فأناخ راحلته، ثم ذهب إلى منخفض منه فبال، فلما رجع صب عليه أسامة الوضوء، فتوضأ ﷺ وضوءاً خفيفاً غير سابغ، فقال له أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الصلاة يا رسول الله؟»، قال: «**الصَّلَاة أَمَامَكَ**». ثم ركب إلى مزدلفة[٢].

أَلَا فرضي الله عن أصحاب محمد ﷺ وأرضاهم، والذين رمقوا فعله، وحفظوا قوله، ثم وعوه وأدَّوه إلى مَن بعدهم، حتى كأنما عشنا معهم، نرى ما رأوا، ونسمع ما سمعوا، حتى هذا الفعل الفطري، وهو حاجة الإنسان إلى البول، حفظوه لنا، متى كان، وأين كان، فعن أنس بن سيرين: قَالَ: «كُنْتُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ بِعَرَفَاتٍ، فلمّا أَفَاضَ الإِمَامُ أَفَضْنَا مَعَهُ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى المَضِيقِ دُونَ المَأْزِمَيْنِ، فَأَنَاخَ وَأَنَخْنَا، وَنَحْنُ نَحْسَبُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُصَلِّيَ، فَقَالَ غُلَامُهُ الَّذِي يُمْسِكُ رَاحِلَتَهُ: إِنَّهُ لَيْسَ يُرِيدُ الصَّلَاةَ، وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا انْتَهَى إِلَى هَذَا المَكَانِ قَضَى حَاجَتَهُ، فَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَقْضِيَ حَاجَتَهُ هُنَا»[٣].

فإذا كانت ملاحظتهم لمثل هذا الفعل هكذا فما ظنك بأمره ونهيه وهديه؟!، فهل يقول مُتَقَوِّلٌ بعد ذلك: إن شيئاً من عهد رسول الله ﷺ الذي عهده، ووصاته التي أوصى بها، يمكن أن تخفى على أمته أو تكتم عنها، وهؤلاء هم أصحابه والرواة عنه والحفظة لسنته والأمناء على ميراثه؟!

---

(١) المأزم: كل طريق ضيق بين جبلين، وهو طريق بين عرفة والمزدلفة، وقد عبدت فيه ثلاث مسارات أحدها للمشاة.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٣٩)، و«صحيح مسلم» (١٢٨٠).

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (٦١٥١).

أما نبيك ﷺ فقد سار حتى وافى المزدلفة، فنزل في مكان المسجد اليوم، قرب جبل قُزَح[١]، وكان أول شيء فعله هو المبادرة للصلاة قبل أن تناخ الإبل، فتوضأ حين نزل وضوءاً سابغاً، ثم أَذَّن بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأقام، فصلَّى رسولُ الله ﷺ المغرب ثلاث ركعات، فلما انصرف منها أناخ كل إنسان بعيره في منزله، ولم يحلوا أمتعتهم، ثم أقيمت صلاة العشاء، فصلَّى العشاء ركعتين قصراً، فجمع بين المغرب والعشاء جمع تأخير بأذان وإقامتين، ولم يتنفل بينهما[٢]، فلما فرغ منهما قاموا إلى أمتعتهم فحلوها.

واستأذنت أم المؤمنين سَوْدَة بنت زَمْعَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله ﷺ ليلة المزدلفة أن تنفر إلى منى قبل نفرة الناس وازدحامهم، وكانت امرأة ثقيلة بطيئة، فأذن لها، فكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: «فلأن أكون استأذنت رسولَ الله ﷺ كما استأذنت سَوْدَة، أحب إلي من مفروح به»[٣].

ثم هَجَعَ ﷺ ليلته تلك، بعد يوم طويل حَفِيلٍ بجلائل الأعمال، ونهار عامر بالعبادة والدعاء والذكر والتعليم والإرشاد والدلالة على الخير.

وترك ﷺ قيام الليل تلك الليلة، ونام حتى السَّحَر، وهو الذي ما ترك قيام الليل قط؛ فقد كان البدن الشريف بحاجة للراحة بعد جهد يوم عرفة، وبحاجة للنشاط لما يستقبله من أعمال يوم النحر.

فلما كان السَّحَر استيقظ ﷺ، فقدَّم ضعفة أهله إلى مِنى؛ أم حبيبة وأم سلَمة وأُغَيْلِمَةَ بني عبد المطلب، فيهم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٤]، وقال لعمه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

---

(١) جبل قزح: أكمة مرتفعة بجوار مسجد المشعر الحرام، ويسمى: (جبل قزح بالمشعر الحرام)، وكل مزدلفة مشعر حرام.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٣٩)، و«صحيح مسلم» (١٢٨٠).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٨١)، و«صحيح مسلم» (١٢٩٠).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٧٨)، و«صحيح مسلم» (١٢٩٣)، و«جامع الترمذي» (٨٩٢).

«اذْهَبْ بِضُعَفَائِنَا وَنِسَائِنَا فَلْيُصَلُّوا الصُّبْحَ بِمِنًى، وَلْيَرْمُوا جَمْرَةَ العَقَبَةِ قَبْلَ أَنْ يُصِيبَهُمْ دَفْعَةُ النَّاسِ». فدفعوا بسَحَر، وصلوا الصبحَ بمِنى[(١)].

ولما تنفَّس الصبحُ وأضاءت خيوط الفجر الأولى قام ﷺ مسارعاً إلى صلاة الفجر، فصلَّاها في غاية البكور في أول الوقت، حتى يقول قائل: قد طلع الفجر. ويقول قائل: لم يطلع الفجر؛ لشدة بكوره بها، وذلك ليتسع الوقت بعدها للذكر، وما يستقبل من المناسك، فلما قضى صلاته ركب راحلته، فرقى جبل قُزَح، وهو أَكَمَةٌ مشرفة على المسجد، ولعله صنع ذلك ليكون مشرفاً للناس يرونه كلهم، فاستقبل القبلة، ورفع يديه الشريفتين، فحمد الله وكبَّره وهلَّله ووحَّده ولبَّاه، عملاً بقول مولاه: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ﴾، وكان يقول: **«لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ»**. ويدعو ربه ويذكره على حال من الضراعة والخضوع، وهو مع ذلك يعلِّم الناسَ ويبيِّن لهم، فقال: **«وَقَفْتُ هَا هُنَا، وَالمُزْدَلِفَةُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ بَطْنِ مُحَسِّرٍ»**[(٢)].

وجاءه عروة بن مُضَرِّس الطائي رضي الله عنه، فقال: «يا رسول الله، جئتك من جبلي طيِّئ[(٣)]، أتعبت نفسي، وأنصبت راحلتي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حج؟»، فقال ﷺ: **«مَنْ شَهِدَ مَعَنَا هَذِهِ الصَّلاةَ**- يعني صلاة الفجر- **بِجَمْعٍ، وَوَقَفَ مَعَنَا حَتَّى نُفِيضَ مِنْهُ، وَقَدْ أَفَاضَ قَبلَ ذَلِكَ مِنْ عَرَفاتٍ لَيْلاً أَوْ نَهَاراً، فَقَدْ تَمَّ حَجُّه، وقَضَى تَفَثَهُ»**[(٤)].

---

(١) «شرح معاني الآثار» (٢/ ٢١٥).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (١٨٩٦)، و«صحيح ابن خزيمة» (٢٨١٦).

(٣) جبلي طيء: هما جبلا: أجا وسلمى في منطقة حائل شمال المملكة العربية السعودية، وهي منازل قبيلة طيء.

(٤) «سنن أبي داود» (١٩٥٠)، و«جامع الترمذي» (٨٩١).

يوم الحج الأكبر

بقي ﷺ في المشعر الحرام حتى أَسْفَرَ جِدّاً، وقاربت الشمس أن تطلع، فأمر ابنَ عمه الفضل بنَ العباس بن عبد المطَّلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن يلقط له حصى الجمار، وقال: «**هَاتِ، القُطْ لِي**». فالتقط له سبع حصيات صغار بحجم حبة الحمص أو أكبر قليلاً، فوضعهن في يده، وجعل يَنْفُضُهُنَّ في كفِّه، ثم رفع يده، وقال للناس -وهو يشير بيده، كمَن يريد أن يرمي-: «**بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، وَإِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ فِي الدِّينِ**»[(١)].

ثم أردف الفضل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على راحلته، ودفع ركابه الميمون من مزدلفة قبل طلوع الشمس؛ مخالفاً هَدْي المشركين؛ فإنهم كانوا لا يدفعون من مزدلفة إلا عند طلوع الشمس على رؤوس الجبال مثل عمائم الرجال، ويقولون: أَشْرِقْ ثَبِيرُ كَيْما نُغِيرُ[(٢)]، أي: أشرقي أيتها الشمس على جبل ثَبِير، حتى ندفع من مزدلفة -وثَبِير جبل عظيم مقابل لجبل قُزَح[(٣)]- فخالفهم ﷺ، ودفع قبل أن تطلع الشمس.

(١) ينظر: «سنن ابن ماجه» (٣٠٢٩)، و«سنن النسائي» (٣٠٥٧).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٨٤)، و«سنن ابن ماجه» (٣٠٢٢).

(٣) وهو أعلى جبل بالمزدلفة، ويسمى اليوم: جبل مزدلفة. ينظر: تعليق د. عبد الملك بن دهيش على «أخبار مكة» للأزرقي (٢/ ٩٢٩).

وانطلق فتية من سُبَّاق قريش عَدْواً على أرجلهم إلى منى، فسبقوا الرِّكاب، منهم أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[١].

دفع ﷺ من مزدلفة، وهو على حال من السكينة والوقار، ونداؤه للناس حين دفعوا معه: «**عَلَيْكُمُ السَّكِينَةَ**»[٢]، وهو كافٌّ ناقته، كحاله في شأنه كله ﷺ؛ رفيقاً يحب الرفق، وكان رديفه الفضل بن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، شابّاً أبيض وسيماً حسن الشعر، فمرت به نساء على ركائبهن يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسولُ الله ﷺ يده على وجه الفضل، فحوَّل الفضلُ وجهه إلى الشق الآخر، فحوَّل رسولُ الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، فصرف وجهه من الشق الآخر ينظر، فقال له ﷺ: «**يَا ابنَ أَخِيْ، إِنَّ هَذَا يَوْمٌ مَنْ مَلكَ فِيهِ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَلِسَانَهِ غُفِرَ لَهُ**»[٣]. حتى إذا وصل «وادي مُحسِّرٍ» بين «مزدلفة» و«منى» حرك ناقته وأسرع قدر رمية بحَجَر[٤].

وسلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى[٥]، وكان في طريقه لهجاً بالتلبية والتكبير، حتى إذا وصل إلى جمرة العقبة، استقبلها جاعلاً «منى» عن يمينه، و«مكة» عن يساره، ومعه بلال وأسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أحدهما ممسك بخِطام ناقته، والآخر رافع ثوباً يظلله به، وهو يرمي جمرة العقبة بسبع حصيات، يكبِّر مع كل حصاة، ولم يقطع التلبية حتى رمى الجمرة[٦]، وكان في شأنه كله متواضعاً لله معظِّماً لشعائره، قال قدامة بن عبد الله الكِلَابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ رمَى جمرة العقبة يوم النحر على ناقةٍ صَهْباءَ، بلا زَجْرٍ، ولا طَرْدٍ، ولا: إِلَيْكَ إِلَيْكَ»[٧].

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢٨٠)، و«سنن أبي داود» (١٩٢١).
(٢) ينظر: «مسند أحمد» (١٧٩٤)، و«صحيح مسلم» (١٢٨٢)، وما تقدم في دفعه ﷺ من عرفة.
(٣) ينظر: «مسند أحمد» (٣٠٤١).
(٤) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢١٨)، و«سنن ابن ماجه» (٣٠٧٤).
(٥) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢١٨).
(٦) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٤٤)، و«صحيح مسلم» (١٢٨١).
(٧) ينظر: «جامع الترمذي» (١٥٤١٠)، و«سنن النسائي» (٣٠٦١).

وازدحم الناس حوله، فقال ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا يَقتُلُ بَعْضُكُم بَعْضاً، وَلَا يُصِيبُ بَعْضُكُم بَعْضاً، وَإِذَا رَمَيْتُمُ الجَمْرَةَ فَارْمُوا بِمِثْلِ حَصَى الخَذْفِ، وَلْتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِيْ لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ**»[(١)].

وكان الناس حوله، يصله مَن شاء منهم، الرجل والمرأة، والكبير والصغير، لا يُدفع عنه أحدٌ ولا يُبعد، فجاءت امرأةٌ شابة حسناء تسأله، والفضل رِدْفَه، وكان الفضل شابّاً في العشرين من عمره وسيماً وضيئاً، فجعلتْ تَنظُرُ إليه وطفِق يَنظُرُ إليها، وأعجبه حسنها، فالتفت النبيُّ ﷺ، فإذا الفضل ينظر إليها، فأخلف بيده فأخذ بذقن الفضل، فدفع وجهه عن النظر إليها، فنظر من الشق الآخر، فصرف وجهه مرةً أخرى، حتى قال أبوه العباس رضي الله عنه: «يا رسول الله، لِمَ لويت عنق ابن عمك؟»، فقال ﷺ: «**رَأَيْتُ شَابّاً وَشَابَّةً، فَلَمْ آمَنِ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِما**». فقالت المرأة: «يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أَفَأَحُجُّ عنه؟»، قال: «**نَعَمْ، حُجِّي عَنْ أَبِيكِ**»[(٢)].

ولا تدري ممَّ تعْجَب في هذا المشهد، أمن تواضع النبي ﷺ وقربه من الناس ودنوه منهم، حتى تجترئ عليه فتاة -في هذا المشهد الحافل- بهذا السؤال وهذه الحال، أم مِن تفهُّم النبي ﷺ لنوازع الشباب، وما جُبِلت عليه النفوس الفتية، فيسارع بالتأديب اللطيف الذي يجمع الرفق والمودة، ولا يستثيره تكرُّر المشهد إلى العنف أو الغلظة! أم من جرأة النبي ﷺ على ابن عمه وقريبه دون المرأة؛ لأن الفضل يحتمل من رسول الله ﷺ ما لا تحتمله فتاة غريبة، ولا تزال تتأمل هذا المشهد حتى تتداعى إليك روائع المعاني من أدب التربية، وحسن التعليم، ولطف التوجيه، من خير معلِّم للناس الخير، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٢٩٧)، و«سنن أبي داود» (١٩٧٠).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٥٦٢)، و«صحيح البخاري» (١٥١٣)، و«صحيح مسلم» (١٣٣٤).

خطبة يوم النحر:

ثم وقف رسولُ الله ﷺ للناس على ناقته العَضْبَاءِ بين الجمرات عند ارتفاع الضُّحى، وأطاف به أصحابه، ما بين قاعد وقائم، فقال لجرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وكان رجلاً طوالاً جهير الصوت-: «**اسْتَنْصِتْ لِيَ النَّاسَ**». فأنصتوا له، حتى كأنَّ على رؤوسهم الطير، فخطبهم خطبة عظيمة، فتح الله لها أسماعهم، حتى سمعوه في منازلهم، فحمدَ اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، الزَّمَانُ قَد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَةِ وَذُو الحِجَّةِ وَالمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ، الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ**». ثم قرأ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، **وإِنَّ النَّسِيءَ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ، وَيُحرِّمُوا مَا أَحَلَّ اللهُ**».

ثم قال: «**أيُّ شَهْرٍ هَذَا؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. فسكت، حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أَلَيْسَ ذَا الحِجَّةِ؟**». قالوا: بلى. ثم قال: «**أيُّ بَلَدٍ هَذَا؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَم. فسكت، حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أَلَيْسَ البَلْدَةَ؟**». قالوا: بلى. ثم قال: «**فَأيُّ يَوْمٍ هَذَا؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. فسكت، حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «**أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟**». قالوا: بلى. قال: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، أَلَا إِنَّ المُسْلِمَ أَخُو المُسْلِمِ، فَلَيْسَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ، إِلَّا مَا أَحَلَّ مِنْ نَفْسِهِ، وَحَتَّى دَفْعَةٌ دَفَعَهَا مُسْلِمٌ مُسْلِماً يُرِيدُ بِهَا سُوءاً حَرَامٌ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهمَّ فَاشْهَدْ.**

وَسَأُخْبِرُكُمْ مَنِ المُسْلِمُ، المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الخَطَايَا وَالذُّنُوبَ، وَالمُجَاهِدُ

مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ الله، أَلَا لَا يَجْنِي جَانٍ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا يَجْنِي وَالِدٌ عَلَى وَلَدِهِ، وَلَا مَوْلُودٌ عَلَى وَالِدِهِ، أَلَا لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، وَإِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا هَل بلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَداً، وَلَكِنْ سَتَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِي بَعْضِ مَا تَحْقِرُونَ مِنَ أَعْمَالِكُمْ فَيَرْضَى، فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ.

أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ أَسْوَد مُجَدَّعٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ الله تَعَالَى، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا.

ثَلَاثٌ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ[1] قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ لله، وَمُنَاصَحَةُ أُولِي الأَمْرِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ».

ثم ذكر المسيحَ الدَّجَّالَ، فأَطْنَبَ في ذكره، وقال: **«مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ، أَنْذَرَهُ نُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ فِيكُمْ، فَمَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِهِ فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُمْ: أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ عَيْنِ اليُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ.**

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي وَالله لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا بِمَكَانِي هَذَا، فَرَحِمَ اللهُ مَنْ سَمِعَ مَقَالَتِي اليَوْمَ فَوَعَاهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ وَلَا فِقْهَ لَهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ.

أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبلغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ».

---

(١) يُغِلُّ عليهن قلب مؤمن: هو من الإغلال: أي الخيانة في كل شيء. ويُروى: «يَغِلُّ» بفتح الياء من الغِل، وهو الحِقْد والشَّحناء، والمعنى: أن هذه الخلال الثلاث تُسْتَصْلَح بها القلوبُ، فمن تَمسَّك بها طَهُر قَلْبُه من الخيانة والشر.

ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال: «**اللَّهُمَّ هَل بلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَل بلَّغْتُ؟**». قالوا: نعم بلَّغ رسولُ الله. فرفع يديه إلى السماء، ثم قال: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»[١].

وجعل يتطاول ليُسْمِعَ الناسَ، ويقول: «**أَلَا تَسْمَعُونَ**». يُطوِّل في صوته[٢]. وينادِي: «**يا أُمَّتَاهُ، هَلْ بَلَّغْتُكُمْ؟**». حتى قال صبيٌّ في الموقِف لأمه: «يا أُمَّهْ، ما له يدعو أمه؟»، فقالت له: «يا بني، إنه لا يدعو أمه، إنما يعني أُمَّتَهُ»[٣]. وودَّع ﷺ الناس، فسُمِّيت: «حجة الوداع»[٤].

واستشعر الناسُ أنها موعظة مودِّع، فقال رجلٌ من طوائف الناس: «يا رسول الله، ماذا تَعهَدُ إلينا؟» قال: «**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ طيبَة بِهَا نُفُوسِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**»[٥].

وثار الناسُ إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن أحكام المناسك، فجاءه رجلٌ فقال: «حلقتُ قبل أن أرمي؟»، فقال: «**ارْمِ وَلَا حَرَجَ**». وجاءه رجلٌ فقال: «حلقتُ قبل أن أذبح؟»، فقال: «**اذْبَحْ وَلَا حَرَجَ**». وجاءه رجلٌ فقال: «لم أشعر، فنحرتُ قبل أن أرمي؟»، قال: «**ارْمِ وَلَا حَرَجَ**». وجاءه رجلٌ فقال: «طفتُ قبل أن أرمي؟»، قال: «**لَا حَرَجَ**». وقال قائلٌ: «سعيتُ قبل أن أطوف؟»، قال: «**لَا حَرَجَ**». فما سُئل عن شيء قُدِّم ولا أُخِّر، إلا قال: «**افْعَلْ ولَا حَرَجَ**». وما سألوه عن شيء، إلا قال: «**لَا حَرَجَ، لَا حَرَجَ**»[٦].

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٣٣٥٠)، و«مسند عبد بن حميد» (٨٥٨)، و«صحيح البخاري» (١٢١، ١٧٤١، ٤٤٠٢)، و«صحيح مسلم» (١٢٩٨)، و«مسند الدارمي» (٢٣٣)، و«جامع الترمذي» (٣٠٨٧)، و«مسند البزار» (٣٧٥٢)، و«مستدرك الحاكم» (٣١٨).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٢٢١٦١).

(٣) ينظر: «المعجم الكبير» للطبراني (٥٣٨)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٧٥٥٧).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٤٠٢).

(٥) ينظر: «مسند أحمد» (٢٢٢٦٠).

(٦) ينظر: «صحيح البخاري» (٨٣)، و«صحيح مسلم» (١٣٠٦).

وجاءت الأعرابُ من هاهنا وهاهنا، فقالوا: يا رسولَ الله، أفتنا في كذا، أفتنا في كذا. فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ عَنْكُمُ الحَرَجَ، إِلَّا رَجُلاً اقْتَرَضَ مِنْ عِرْضِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، وَهُوَ ظَالِمٌ، فَذَلِكَ الَّذِي حَرِجَ وهَلَكَ**». قالوا: يا رسول الله، نتداوى؟ قال: «**نَعَمْ، تَدَاوَوا؛ فإِنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ داءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيرَ دَاءٍ وَاحِدٍ**». قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «**الهَرَمُ**». قالوا: ما خير ما أُعطي الناسُ يا رسول الله؟ قال: «**خُلُقٌ حَسَنٌ**»[١].

ثم نزل النبيُّ ﷺ منزله بمنى، وهو مكان مسجد الخَيْف الآن، وأنزل المهاجرين بميمنِه، والأنصار بيسرتِه، والناس حولهم من بعدهم[٢].

وسأله أصحابُه أن يبنوا له بمنى بناءً يُظِلُّه، فأَبَى عليهم أن يكون له بناء يميِّزه في هذا المشعر عن سائر الناس، وقال: «**لَا، مِنًى مُناخُ مَنْ سَبَقَ**»[٣].

في المنحر:

ثم انصرف إلى المنحر، وهو ما بين مسجد الخيف والجمرة الصغرى، لينحر هديه، وقال: «**ادْعُوا لِي أَبَا حَسَنٍ**». فدُعي له عليٌّ رضي الله عنه، فقال: «**خُذْ بِأَسْفَلِ الحَرْبة**». وأخذ رسولُ الله ﷺ بأعلاها. ثم قُرِّبت إليه البُدْنُ أَرْسالاً، معقولةً يدها اليسرى، قياماً على ما بقي من قوائمها، فجعل يطعنها بالحربة في لَبَّاتِها أسفل العنق[٤]، فإذا العجب كل العجب يقع من هذه الإبل العجماوات، وهي تُقرَّب إلى رسول الله ﷺ لينحرها قرباناً لربه عز وجل؛ لقد جعلت الإبل يَزْدَلِفْنَ[٥] لرسول الله ﷺ، أيها يبدأ به أولًا![٦].

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٨٤٥٤)، و«سنن أبي داود» (٢٠١٥، ٣٨٥٥)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٤٦٣).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (١٦٥٨٨)، و«سنن أبي داود» (١٩٥١).

(٣) ينظر: «سنن أبي داود» (٢٠١٩)، و«جامع الترمذي» (٨٨١).

(٤) اللبات، جمع لبَّة، وهي موضع النحر في أسفل الرقبة.

(٥) أي: يَقْرُبْن منه.

(٦) ينظر: «مسند أحمد» (١٩٠٧٥)، و«سنن أبي داود» (١٧٦٥).

إنها البهائم التي سيقال لها يوم القيامة: كوني تراباً. فتكون تراباً. ومع هذا تَزْدَلِفُ إلى رسول الله ﷺ؛ أيها يبدأ به أولاً لينحرها! فماذا يقول المؤمن برسول الله المتَّبع لدينه؟ أما كانت أعيننا عمياً وآذاننا صمّاً وقلوبنا غلفاً حتى فتحها الله وأحياها بمحمد ﷺ؟!، فكيف ينبغي لحبها له أن يكون؟!

أما والله، لو ذابت القلوبُ في أَحْنَائِها، وتفتَّتت الأكبادُ في أجوافها؛ حبّاً له وشوقاً إليه لَمَا كانت وربي ملومةً، فصلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

نحر ﷺ هديه، فنحر بيده الشريفة ثلاثاً وستين بَدَنَةً، بعدد سني عمره المبارك، ثم أمر عليّاً بنحر ما بقي منها، وأشركه معه في هديه، وقال للناس: «**مَنْ شَاءَ اقْتَطَعَ**»[١]. وأمر عليّاً رضي الله عنه أن يقوم عليها، وقال له: «**اقْسِمْ لُحُومَهَا وَجِلَالَهَا**[٢] **وجُلُودَهَا بَيْنَ النَّاسِ، وَلَا تُعْطِيَنَّ جَزَّاراً مِنْها شَيئاً؛ نَحْنُ نُعْطِيَهُ مِنْ عِنْدِنَا، وَخُذْ مِنْ كُلِّ بَعيرٍ حِذْيَةً مِنْ لَحمٍ**[٣]**، ثُمَّ اجْعَلْها فِي قِدْرٍ وَاحِدةٍ؛ حَتَى نَأكُلَ مِنْ لَحمِهَا وَنَحْسُوَ مِنْ مَرَقِهَا**»[٤]. وقال: «**نَحَرْتُ هَاهُنَا، ومِنًى كُلُّها مَنْحَرٌ، وُكُلُ فِجَاجِ مَكةَ طَرِيقٌ وَمَنْحَرٌ، فَانْحَروُا فِي رِحَالِكُم**»[٥].

وأهدى عمَّن اعتمر من نسائه بقرة بينهن، قالت عائشة: «دُخِل علينا يوم النحر بلحم بقر، فقلت: ما هذا؟! قالوا: نحر رسولُ الله ﷺ عن أزواجه»[٦]، ونحر الصحابة رضي الله عنهم، يشترك في الجزور منهم سبعة، وفي البقرة سبعة[٧].

---

(١) تقدم في الذي قبله.
(٢) الجِلال: أكسية تكسى بها ظهور البدن.
(٣) هي القطعة الصغيرة من اللحم.
(٤) «مسند أحمد» (٢٣٥٩)، و«صحيح البخاري» (١٧١٧)، و«صحيح مسلم» (١٣١٧).
(٥) «مسند أحمد» (١٤٤٩٨)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨)، و«سنن أبي داود» (١٩٣٧).
(٦) ينظر: «مسند أحمد» (٢٦١٠٩)، و«صحيح البخاري» (١٧٠٩)، و«صحيح مسلم» (١٢١١).
(٧) ينظر: «مسند أحمد» (١٥٠٤٣)، و«صحيح مسلم» (١٢١٣).

وقسَّم ﷺ وهو في المنحر غنماً على أصحابه هَدياً لمَن لم يكن معه هَدْي، فأصاب سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منها تيساً فذبحه عن نفسه[١].

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن النبي ﷺ أعطاه غنما يقسمها على صحابته، فبقي عتود، فذكره للنبي ﷺ فقال: «**ضَحِّ بِهِ أَنْتَ**»[٢].

وعن أبي بكرة قال: «خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر فقال: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ** -مَرَّتَيْنِ- **فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**». ثم مال على ناقته إلى غنيمات فقسمها بيننا»[٣].

وسأله أصحابه عن ادخار لحوم الهدي، وكان قد نهاهم في السنة التي قبلها عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث؛ لكثرة الوفود التي دَفَّتْ إلى المدينة، فقالوا: يا رسول الله، نفعل كما فعلنا العام الماضي؟ قال: «**إِنِّي كُنْتُ نَهَيتُكُمْ أَنْ تَأكُلُوا الأَضَاحِيَّ فَوْقَ ثَلَاثٍ، مِنْ أَجْلِ الدَّافَّةِ**[٤] **الَتِي دَفَّتْ عَلَيْكُم، فَإِنَّ ذَلِكَ العَامَ كَانَ بِالنَّاسِ جَهْدٌ، فَأَرَدْتُ أَنْ تُعِينُوا فِيهَا، وإِنِّي أُحِلُّهُ لَكُمْ، فَكُلُوا مَا شِئْتُم، وَأَطْعِمُوا، وَتَزَوَّدُوا**». فأكلوا، وتزودوا حتى بلغوا به المدينة[٥].

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٨٠٢)، و«صحيح ابن خزيمة» (٢٩٢٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٣٠٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٦٥).

(٣) «مسند أحمد» (٢٠٤٥٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٩).

(٤) الدافة: القوم يَسيرون جماعة سَيْرا ليس بالشديد. يقال: هم يَدِفُّون دَفِيفاً. والدافَّة: قوم من الأعراب يَرِدُون المِصْر، يُريد أنهم قَوم قَدِموا المدينة عند الأضْحَى، فنَهى الناس عن ادِّخار لُحوم الأضاحي لِيُفَرِّقوها ويتصدَّقوا بها، فيَنْتفِع أولئك القادمون بها.

(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٥٦٩)، و«صحيح مسلم» (١٩٧١).

وقال لمولاه ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَا ثَوْبَانُ، أَصْلِحْ هَذَا اللَّحْمَ**». أي: جففه وملِّحه حتى يكون قَدِيداً، لا يسرع إليه الفساد. قال ثوبان: «فأصلحتُه، فلم يزل يأكل منه حتى قدم المدينة»[(١)].

وبذلك جمع ﷺ بين الدلالة القولية والقدوة العملية، ورأى الصحابةُ الجوابَ على سؤالهم مِن فعله كما سمعوه من قوله.

ولما فرغ ﷺ من المنحر دعا بالحلَّاق؛ ليحلق رأسه المقدَّس، فجاء معمر بن عبد الله العدوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومعه الموسَى، فنظر رسولُ الله ﷺ في وجهه، ثم قال له ملاطفاً: «**يَا مَعْمَرُ، أَمْكَنَكَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ شَحْمَةِ أُذُنِه، وَفِي يَدِكَ المُوسَى**». فقال معمر: «والله يا رسول الله، إن ذلك لمن نعمة الله عليَّ ومَنِّه». فقال ﷺ: «**أَجَلْ إذاً أَقِرَّ لَكَ**». أي: أثبت واستقر لك. ثم سوَّى شعره بيده، وقبض على شعر شقه الأيمن، وقال للحلاق: «**احْلِقْ**»، فأطاف به أصحابه، ما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل، فجعل يقسم بين مَن يليه الشعرة والشعرتين، ثم قبض في بيده على شعر شقه الأيسر، وقال للحلَّاق: «**احْلِقْ**». وأشار إلى جانبه الأيسر، ثم قال: «**أَيْنَ أَبُو طَلْحَةَ؟**». فجاء أبو طلحة، فدفع إليه شعر رأسه الأيسر كله[(٢)].

وكأنما استعاد ﷺ عشر سنين قضاها في المدينة، وبيت أبي طلحة وزوجه أم سليم وربيبه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كأنما هو من بيوت النبي ﷺ، خدمةً لرسول الله، وعناية بشأنه، وقرباً وحفاوة به، فإذا رسولُ الله ﷺ يختاره هذا اليوم على أهل هذا الموقف كلهم، فيعطيه شعر شق رأسه كله، ويناوله ما لم يناول أحداً مثله، وينطلق أبو طلحة يحوز الشعر المقدَّس، وكأنما طِلاعُ الأرض ذهباً وفضة بين يديه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٩٧٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٧١)، و«صحيح مسلم» (١٣٠٥).

ورحم الله ابنَ سيرين الذي كان يحدِّث بهذا الحديث، ثم يقول: «لأن يكون عندي منه شعرة، أحب إليَّ من الدنيا وما فيها».

ورحم الله عَبِيدة السَّلْماني الذي سمع هذا الحديث، فقال: «لأن تكون عندي منه شعرة، أحب إليَّ من كل أصفر وأبيض أصبح على وجه الأرض وفي بطنها»[(١)].

ودعا رسولُ الله ﷺ للمحلِّقين، فقال: «**اللَّهُمَّ ارْحَمِ المُحَلِّقِين**». قالوا: والمقصرين يا رسول الله. قال: «**اللَّهمَّ ارْحَمِ المُحَلِّقِينَ**». قالوا: والمقصرين يا رسول الله. قال: «**والمُقَصِّرِينَ**». قال مالك بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول ذلك، وأنا يومئذ محلوق الرأس، فما يسرني بحلق رأسي حُمْرُ النَّعَمِ»[(٢)].

وقلَّم ﷺ أظفاره وقسَّمها بين الناس[(٣)]، فعن عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنه شهد النبي ﷺ عند المنحر هو ورجل من الأنصار، فقسم رسول الله ﷺ ضحايا فلم يصبه ولا صاحبه شيء، وحلق رأسه في ثوبه فأعطاه، وقسم منه على رجال، وقلم أظفاره فأعطاه صاحبه، فإن شعره عندنا لمخضوب بالحناء والكتم»[(٤)].

وبعد أن رمى ﷺ يوم العيد ونحر وحلق نزع إحرامه، ويغلب على الظن أنه اغتسل ليزيل عنه التَّفَثَ[(٥)] وآثار الجهد والنصب، ثم لبس ثيابه، وطيَّبته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأطيب ما تجد من الطيب، وضمخت بيديها رأسه الكريم مِسكاً[(٦)].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٧١)، و«سنن البيهقي» (٤٢٣٣، ١٣٤١٠).
(٢) ينظر: «مسند أحمد» (١٧٥٩٨)، و«صحيح البخاري» (١٧٢٧)، و«صحيح مسلم» (١٣٠١).
(٣) ذكره القسطلاني في «المواهب اللدنية» (٣/ ٣٣٩).
(٤) «مسند أحمد» (١٦٤٧٥)، و«صحيح ابن خزيمة» (٢٩٣١).
(٥) التفث: هو الدَّرَن والوسَخ.
(٦) ينظر: «صحيح البخاري» (١٧٥٤)، و«صحيح مسلم» (١١٨٩).

إلى الحرم:

ثم ركب ﷺ إلى البيت، مردفاً أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فلما وصل الكعبة طاف راكباً؛ ليراه الناس، وليُشْرِفَ لهم وليسألوه؛ فإن الناس غَشُوهُ وكثروا حوله، وكان يستلم الركن بمِحْجَنٍ[١] في يده، ويكبِّر، ويقبِّل طرف المِحْجَنَ[٢]، فلما فرغ من طوافه أناخ راحلتَه، فصلَّى ركعتين[٣]، وسعى الذين تمتعوا من أصحابه بين الصفا والمروة لحجهم، كما سعوا قبل ذلك لعمرتهم، وأما رسولُ الله ﷺ ومَن لم يحل ممن ساق الهدي من أصحابه، فلم يسعوا بين الصفا والمروة بعد طوافهم هذا[٤].

ثم ذهب ﷺ إلى سقاية عمه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيث كان يسقي الناس النبيذَ[٥]، فاستسقى من أوعيتهم التي يجعلون فيها سقاية الناس، فقال عمه العباس: «يا فضل، اذهب إلى أمك، فائْتِ رسول الله ﷺ بشراب من عندها». فأبى ﷺ ذلك، وقال: «**لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، اسْقُونِي مِمَّا يَشْرَبُ مِنْهُ النَّاسُ**». قال: «يا رسول الله، إنهم يجعلون أيديهم فيه، وإن هذا النبيذ قد مُغِثَ ومُرِثَ[٦]، أفلا نسقيك لبناً أو عسلاً؟» أي: إن أيدي الناس قد وقعت فيه وخالطته، وأراد أن يسقي رسولَ الله ﷺ بشراب يخصه به،

---

(١) المحجن: عصا محنية الرأس.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٣٢)، و«صحيح مسلم» (١٢٧٢).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٩٢)، و«صحيح مسلم» (١٢٢٧).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٥٦)، و«صحيح مسلم» (١٢١١).
ووقع في رواية جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في «صحيح مسلم» (١٢١٥) قوله: «لم يطف النبي ﷺ ولا أصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافاً واحداً». ولكن فصَّلت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت: «فطاف الذين أهلوا بالعمرة بالبيت وبالصفا، ثم حلُّوا، ثم طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى لحجِّهم». متفق عليه، فيحمل ما في رواية جابر على مَن كانوا قارنين، ورواية عائشة على المتمتعين.

(٥) النبيذ: هو الماء الذي يلقى فيه التمر أو الزبيب؛ ليجعل لطعمه حلاوة، ويستعمل في القرى التي تستقي من الآبار؛ لملوحة مائها، كمكة والمدينة، وليس هو النبيذ المُسكر.

(٦) أي: نالته الأيدي وخالطته.

ولكن النبي ﷺ أبى أن يكون له تميز في أمر السقاية، وأن يختص نفسه بما لا يشركه فيه غيره، حتى وإن كان شراباً يؤثره به عمه؛ لذا أعاد عليه أخرى: «**اسْقُونَا مِمَّا تَسْقُونَ مِنْهُ النَّاسَ**». فأُتي النبي ﷺ ومعه أصحابه المهاجرون والأنصار بأقداح كبار فيها النبيذ، فلما شرب ﷺ عَجِل قبل أن يروى، فرفع رأسه، فقال: «**أَحسَنتُمْ وأَجْمَلْتُمْ، كَذَا فَاصْنَعُوا**». ثم سقى فضله أسامة بن زيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فرِضَا رسول الله ﷺ ذلك أعجب إليَّ من أن تسيل شعاب مكة علينا لبناً وعسلاً»[(١)].

ثم أتى ﷺ زمزمَ، وبنو عبد المطلب يسقون ويعملون فيها، فقال: «**اعْمَلُوا؛ فإِنَّكُم عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ**». فنزعوا له دلواً، فشرب منها وهو قائم، ثم مَجَّ فيها من فمه الطيب مجةً، فأخذوها وأفرغوها في زمزم؛ حتى تعم بركة بقية شرابه ومجته مَن بعده. وقال لهم: «**لَوْلَا أَنْ تُغلَبُوا لَنَزَلْتُ حتَّى أَضَعَ الحَبْلَ عَلى هَذِه**». وأشار إلى عاتقه[(٢)]. وذلك أنه لو نزع لصارت سُنَّةً يتبعه فيها الناس، ولغُلِبَ بنو العباس على سقايتهم التي كانت من مآثرهم قبل الإسلام، ولذا شرب من الدلو مع الناس، ولم ينزع مع بني عمه، حتى لا يغلبوا عليها.

ثم عاد ﷺ إلى «منى»، فصلَّى بالناس صلاة الظهر[(٣)].

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٩٤٤)، و«صحيح البخاري» (١٦٣٥)، و«صحيح مسلم» (١٣١٦).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٣٥٢٧)، و«صحيح البخاري» (١٦٣٥).

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (١٣٠٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
وقد ورد أن النبيَّ ﷺ صلَّى الظهر بمكة. ينظر: «صحيح مسلم» (١٢١٨).
والأول أظهر؛ فلو صلَّى النبيُّ ﷺ الظهر بمكة؛ لنُقل إلينا مَن الذي صلَّى بالناس الظهر بمنى، وقد كان ابن عمر رضي الله عنهما يصلِّي الظهر يوم النحر بمنى، وهذا يدل على أنه كان يتحرَّى التأسِّي بما رأى من رسول الله ﷺ. ينظر: «زاد المعاد» (٢/ ٢٥٨-٢٦١).

ولك أن تتساءل: كيف اتسع وقته ﷺ لكل هذه الأعمال من الرمي، والخطبة، وإفتاء الناس، وإنزالهم منازلهم، ثم النحر لثلاث وستين بدنة، ثم الحلق، والتهيؤ للطواف باللباس والطيب، ثم القدوم للبيت والطواف، ثم الرجوع بعد ذلك؟!

فكيف اتسع لذلك كله ضحوة من نهار؟! إنها البركة التي جعلها الله في وقته وعمله، ولذا أنجز في هذا الوقت كل هذه الأعمال الكثيرة، فإن أبيت إلا التساؤل، فانظر كيف اتسعت ثلاث وعشرون سنة من عمره المبارك لأعظم إنجاز في تاريخ البشرية، وهو بلاغ رسالات الله إلى الخلق، واستنقاذهم من النار، وإخراجهم من الظلمات إلى النور!

أيام منى

عاد ﷺ إلى «منى»، فمكث بها يومه يصلِّي الصلوات في أوقاتها، ويقصر الرباعية منها، وكان يصلِّي بالناس في مسجد الخَيْف، الذي قال فيه: «**صَلَّى بِمَسْجِدِ الخَيْفِ سَبْعُونَ نَبِيّاً**»(١).

وكان المسجد فضاءً ليس له جُدر، وصف ابن عباس رضي الله عنهما صلاته فيه، فقال: «أقبلتُ راكباً على حمار أتان -وهي الأنثى- وأنا يومئذ قد ناهزتُ الاحتلامَ(٢)، ورسولُ الله ﷺ يصلِّي بالناس بمنى في حجة الوداع إلى غير جدار، فمررتُ بين يدي بعض الصفِّ، فنزلتُ وأرسلتُ الحمارَ ترتع، ودخلتُ في الصف، فلم ينكر ذلك عليَّ أحد»(٣).

ولما صلَّى رسول الله ﷺ في مسجد الخَيْف صلاة الفجر انحرف جالساً، واستقبل الناسَ بوجهه، فإذا هو برجلين من وراء الناس لم يصليا مع الناس، فقال:

(١) ينظر: «المعجم الكبير» للطبراني (١٢٢٨٣)، و«مستدرك الحاكم» (٤١٦٩).
(٢) أي: البلوغ، وكان في الثالثة عشرة من عمره.
(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٦)، و«صحيح مسلم» (٥٠٤).

«**ائْتُونِي بِهَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ**». فأتي بهما تَرْعَدُ فرائصُهما[١]، فقال: «**مَا مَنَعَكُمَا أَنْ تُصَلِّيَا مَعَ النَّاسِ؟**». قالا: «يا رسولَ الله، إنا قد كنا صلينا في الرحال». قال: «**فَلَا تَفْعَلَا، إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فِي رَحْلِهِ، ثُمَّ أَدْرَكَ الصَّلَاةَ مَعَ الإِمَامِ، فَلْيُصَلِّهَا مَعَهُ، فَإِنَّهَا لَهُ نَافِلَةٌ**». فقال أحدهما: «استغفر لي يا رسول الله». فاستغفر له. قال يزيد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ونهض الناسُ إلى رسول الله ﷺ، ونهضتُ معهم، وأنا يومئذ أشب الرجال وأجلده. فما زلتُ أَزْحَم الناس حتى وصلت إلى رسول الله ﷺ، فأخذتُ بيده، فوضعتُها إما على وجهي أو صدري. فما وجدتُ شيئاً أطيبَ ولا أبردَ من يد رسول الله ﷺ»[٢].

وكان يخطب أحيانا في مسجد الخيف واعظاً ومذكّراً، فعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «خَطَبَنا رسولُ الله ﷺ في مسجدِ الخَيْفِ، فقال: «**نَضَّر اللهُ وَجْهَ عَبْدٍ سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَمَلَهَا، رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ. ثَلاثٌ لا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ للهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الأَمْرِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»[٣].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «خطَبَنا رسولُ الله ﷺ في مسجدِ الخَيْفِ فحمدَ الله، وذَكَرَه بما هُوَ أَهْلُهُ، ثمَّ قال: «**مَنْ كانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللهُ شَمْلَهُ، وجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، ولَمْ يُؤْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَه**»[٤].

وكان وقته ﷺ معموراً بالذكر؛ عملاً بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعْدُودَٰتٖ﴾.

---

(١) ترعد، أي: تَرْجُفُ وتضْطربُ من الخوف، والفرائص جمع فريصة، وهي لَحْمة في وَسَط الجَنْب عند مَنْبِض القَلْب، ترعد وتثور عند الفَزْعة والغضب.

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (١٧٤٧٦)، و«سنن أبي داود» (٥٧٥).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٩٤)، و«مستدرك الحاكم» (٢٩٧).

(٤) «المعجم الكبير» للطبراني (١١٦٩٠).

والمستشرف لأخبار النبي ﷺ وحاله يُرى أنه كان يكبِّر في قبته بمنى، ويكبِّر أهل المسجد وأهل السوق بتكبيره؛ حتى ترتج «منى» تكبيراً؛ فقد ثبت هذا عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من فعله[١]، وما نحسبه فعله إلا تأسياً به ﷺ.

وأرسل ﷺ جماعة من أصحابه -منهم عليُّ بن أبي طالب، وأبو هريرة، وابنُ عمر، وبشرُ بن سُحيم، وكعبُ بن مالك، وأوسُ بن الحدثان، وعبدُ الله بن حذافة، وسعدُ بن أبي وقاص وبُدَيل بن ورقاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- يطوفون في شعاب منى، ينادون: «**مَنْ كَانَ صَائِماً فَلْيُفطِرْ، فَإِنَّ أَيَّامَ مِنًى أَيَّام أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْر لله، فَلَا صَوْمَ فِيهَا**»[٢].

يوم القَر:

وفي اليوم الحادي عشر -ويسمَّى: يوم الرؤوس، ويوم القَرّ[٣]- خطب الناسَ على بغلة شَهْبَاءَ، وعليه برد أحمر، وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبلِّغ عنه الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أيُّ بَلَدٍ هَذَا؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: «**أَلَيْسَ المَشْعَرِ الحَرَام؟**». قالوا: بلى. قال: «**فَأيُّ يَوْمٍ هَذَا؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**أَلَيْسَ أَوْسَطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ؟**». قالوا: بلى. قال: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فَلْيُبَلِّغْ أَدْنَاكُمْ أَقْصَاكُمْ. أَيُّهَا النَّاسُ،**

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» مع «الفتح» (٢/ ٤٦٢)، و«أخبار مكة» للفاكهي (٢٥٨٠).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٥٦٧، ١٤٥٦، ١٠٦٦٤، ٢١٩٥٠)، و«صحيح مسلم» (١١٤٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٢٨٩٢)، و«صحيح ابن خزيمة» (٢٩٦٠)، و«مستدرك الحاكم» (٢٩٨٨).

(٣) يوم الرؤوس هو اليوم الحادي عشر؛ لأنهم كانوا يأكلون فيه الرؤوس، حتى لا يسرع إليها الفساد. ويُسمَّى: يوم القر؛ لأن الحجاج يقرون فيه بمنى.
ويسمَّى: أوسط أيام التشريق، أي: أفضلها، كما في حديث كعب بن عاصم الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسولَ الله ﷺ خطب أوسط أيام التشريق، وهو الغد من يوم النحر. أخرجه الروياني في «مسنده» (١٥٣٠)، وينظر: «حجة الوداع» لابن حزم (ص٢١٧)، و«فتح الباري» (٣/ ٥٧٤).

إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ مُسْلِمٍ مَالَ أَخِيهِ إِلَّا عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنهُ، فَمَنْ كَانتْ عِندَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلى مَنْ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا. أَلَا هَلْ بَلَّغتُ؟ اللهُمَّ فَاشْهدْ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُم وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُكُم لآدَمَ، وَآدمُ مِنْ تُرابٍ، لَيسَ لِعَربِي فَضْلٌ عَلى عَجمِي، وَلَا لِعَجَمِي فُضلٌ عَلى عَربِي، وَلَا لأَسْوَدَ عَلى أَبْيَض، وَلَا لِأَبيَض عَلى أَسْوَد، إِلَّا بِالتَّقْوَى، إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾. أَيُّهَا النَّاسُ، أَرِقَّاءَكُم أَرِقَّاءَكُم، أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَاكْسُوهُمْ مِمَّا تَلْبسونَ، وَإِنْ جَاؤُوا بِذَنْبٍ لَا تُرِيدُونَ أَنْ تَغْفِروهُ فَبِيعُوا عِبادَ اللهِ وَلَا تُعذِّبُوهُمْ. أَلَا وَإِنَّ الوَلَدَ لِلْفِراشِ، وِلِلْعَاهِرِ الحَجَر، وَحِسَابُهُم عَلى اللهِ تَعَالى، وَمَن ادَّعَى إِلَى غَيرِ أَبِيهِ، أَوْ تَوَلَّى غَيرَ مَوَالِيهِ، رَغْبَة عَنْهُم؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ البَالِغَة إِلَى يَوْمِ القِيَامَة، لَا يَقْبلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفاً وَلَا عَدْلاً». ثم قال: «**اللهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟ اللهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟ اللهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟**». قالوا: بلَّغ رسولُ الله ﷺ.

قال رافع بن عمرو المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصف هذا المشهد: «أقبلت مع أبي وأنا غلام في حجة الوداع، فإذا رسولُ الله ﷺ يخطب الناسَ على بغلة شهباء، وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعبِّر عنه، والناس بين جالس وقائم، فجلس أبي وتخللت الرِّكاب، حتى أتيتُ البغلة، فأخذتُ بركابه، ووضعتُ يدي على ركبته، فمسحتُ الساق حتى بلغتُ بها القدم، ثم أدخلتُ كفي بين النعل والقدم، فيخيل إليَّ الساعةَ أني أجد برد قدمه على كفي»[1].

ولئن عجب رافع بن عمرو من برد قدم النبي ﷺ، فإننا نعجب من برد خُلُقه، وطيب نفسه، إنها النفس الرضية والخُلُق العظيم، أن يمضي ﷺ في خطبته،

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٦٤٠٩، ١٧٦٦٤)، و«مسند الدارمي» (٢٥٧٦)، و«سنن أبي داود» (١٩٥٦)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٤٤٥٨).

ويدع الغلام يمسح قدمه، ويدخل يده تحت شراك نعله، وهو ماضٍ في شأنه، معلِّم بحاله ومقاله.

ثم ألا يستوقفك هذا الإِلْظَاظُ منه ﷺ في ثلاثة أيام تباعاً؟!، هي أعظم الأيام حرمة، في أعظم الشهور حرمة، في أعظم البلاد حرمة: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا**».

لقد كان ﷺ يحيط حرمة الدماء بهذا السياج المنيع أن تُتسور أو تُخترق، ثم بعد هذا الموقف بخمس وعشرين سنة، وقبل أن ينقطع صدى صيحات رسول الله ﷺ تلك، سفك ناس من المسلمين دم الخليفة الراشد، ثم تقابل بالسيوف بعض مَن كانوا في هذا المشهد مع رسول الله ﷺ، وكأنما كان ﷺ ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، وهو يكرِّر النداء، ويُلْحِفُ في المناشدة.

فأي بيان أبينُ، وأيُّ بلاغٍ أبلغُ لحرمة هذه الحقوق من بيان رسول الله ﷺ وبلاغه ذلك! وما أعظم المصيبة أن تُنتهك حرماتها لطمع من الدنيا عارض، وما أفجع الفاجعة إذا سفك الدم المسلم بحجة الدين والجهاد، وهذا بيان رسول الله ﷺ وبلاغه واستشهاده: «**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغتُ؟ اللهُمَّ فَاشْهدْ**». فاللهم عصمتك وهداك.

رمي الجمرات:

ثم لما انتصف النهارُ وزالت الشمس توجَّه ﷺ إلى الجمرات ماشياً، فبدأ بالجمرة الصغرى، فرماها مستقبل القبلة بسبع حصيات، يكبِّر الله مع كل حصاة، ثم تقدَّم حتى أَسْهَلَ؛ ليبعد عن زحام الناس، فرفع يديه واستقبل القبلة، يكبِّر الله ويسبِّحه ويحمده، ودعا وتضرَّع طويلاً، ثم قصد الجمرة الوسطى، فرماها مستقبل القبلة بسبع حصيات، يكبِّر مع كل حصاة، كما صنع عند الصغرى، ثم أخذ ذات الشمال، واستقبل القبلة، ورفع يديه ذاكراً وداعياً ومتضرِّعاً، وأطال الوقوف، وكان وقوفه عند الجمرتين قريباً

من قراءة سورة البقرة، وكان وقوفه عند الجمرة الثانية أطول من الجمرة الأولى، ثم مضى إلى جمرة العقبة فاستقبلها، وجعل منى عن يمينه، والقبلة عن يساره، ورماها بسبع حصيات، يكبِّر مع كل حصاة، ولم يقف عندها[١].

وهكذا صنع في اليوم الثاني عشر، وتأخَّر ﷺ إلى اليوم الثالث عشر، ولم يتعجَّل، وكان يمشي إلى الجمرات ذاهباً وراجعاً، وربما ركب أحياناً في رجوعه منها[٢].

وفي إحدى روحاته إليها عرض له رجلٌ وهو عند الجمرة الأولى، فقال: «يا رسول الله، أي الجهاد أفضل؟»، فسكت عنه، فلما رمى الجمرة الثانية سأله، فسكت عنه، فلما رمى جمرة العقبة ووضع رجله في الغرز ليركب قال: «**أَيْنَ السَائِلُ؟**». قال: «ها أنا يا رسول الله». قال: «**كَلِمَةُ حَقٍّ تُقَالُ عِنْدَ سُلْطانٍ جَائِرٍ**»[٣].

وكان ﷺ سمحاً في إقامة المناسك، وهو المبعوث بالحنيفية السمحة، ميسِّراً للناس رفيقاً بهم، فمن ذلك أنه رخَّص للرعاة أن يرموا يوم النحر، ثم يدعوا يوماً، ثم يرموا من الغد[٤]، ورخَّص للعباس رضي الله عنه أن يبيت بمكة لأجل سقايته[٥]، ولم يحفظ عنه في حجته أنه أوجب دماً على أحد، برغم كثرة الجموع معه، وكونهم حدثاء عهد بالإسلام، يؤدون حجهم أول مرة، وإنما كان هِجِّيرَاهُ[٦] للناس: «**افْعَلْ وَلَا حَرَجَ، لَا حَرَجَ، لَا حَرَجَ، قَدْ أَذْهَبَ اللهُ عَنْكُمُ الحَرَجَ**». مصدِّقاً قول ربه: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾.

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٤٥٩٢)، و«صحيح البخاري» (١٧٥١)، و«سنن أبي داود» (١٩٧٣).
(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٥٩٤٤).
(٣) ينظر: «مسند أحمد» (٢٢٢٠٧)، و«سنن ابن ماجه» (٤٠١٢).
(٤) ينظر: «سنن أبي داود» (١٩٧٥)، و«جامع الترمذي» (٩٥٥).
(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٣٤)، و«صحيح مسلم» (١٣١٥).
(٦) أي: دأبه وشأنه.

تداعي الذكريات:

وهكذا انقضت ثلاثة أيام ورسولُ الله ﷺ في «منى» التي شهدت فجاجها وشعابها دعوته الأولى قبل بضع عشرة سنة، يوم كان يغشى قبائل العرب في مواسمها، ويدخل عليها فجاج منى يدعوهم إلى الله، وقومه جُرءَاءُ عليه، يجاهرونه بالكفر، ويبادرونه بالعدوان، ويتعاقدون على القطيعة، يذكر هذا كله، وفجاج «منى» تذكِّره بماضيها معه، وماضيه معها، يوم سرى في ظلمة الليل مواعداً عصبة الأنصار، يتسلَّلون إليه تسلُّل القَطا[١]، ليبايعهم على الهجرة، مستخفياً من قومه أن يَنْذُروا به، هل ذكَّرت «منى» رسولَ الله ﷺ هذا وغيره، ليقول لما سُئل: أين تنزل غداً يا رسول الله؟ قال: «**بِخَيْفِ بَني كِنَانَةَ، حَيْثُ تَقَاسَمُوا علَى الكُفْرِ**»[٢].

لقد اختار رسولُ الله ﷺ «خَيْف بني كنانة» مكاناً لنزوله إذا خرج من «منى»؛ ليظهر جميل صنع الله وصدق موعوده؛ فهذا المكان هو الذي تعاقدت فيه قريش وحلفاؤها بنو كنانة على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب، وحصارهم في شعب بني هاشم، فلا يبايعونهم ولا يناكحونهم، حتى يُسْلِمُوا إليهم محمداً[٣]، جهداً منهم أن يطفئوا نور الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ثم ها هو ذا محمد ﷺ ينزل في ذات المكان، وقد أظهره الله على الدين كله، ونصره وأعزَّه، وفتح له فتحاً مبيناً، وأكمل له الدين، وأتمَّ عليه النعمة، ودخل الناسُ في دينه أفواجاً، وحج بالناس وبيَّن لهم شرائع الدين، وأقام لهم مناسكهم، وقد نفر بعد إكمال المناسك، فنزل في الموضع الذي تقاسمت فيه قريش على الظلم والعدوان والقطيعة؛ مراغمةً للشرك، وإعلاناً بالشكر لله على جميل صنعه ولطيف تدبيره.

---

(١) القطا: طائر يشبه الحمام، يوصف بحسن المشي وشدّة الحذر.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٨٩)، و«صحيح مسلم» (١٣١٤، ١٣٥١).

(٣) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٥٢).

فلما رمى في اليوم الثالث عشر نفر إلى المحصَّب «خَيْف بني كنانة»[١] قبل صلاة الظهر، وجعل الناس ينصرفون في كل وجه، فقال ﷺ: «**لَا يَنْفِرَنَّ أَحَدٌ حَتَى يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِ بِالبَيْتِ**»[٢].

كان رجلاً سهلاً:

ثم نزل رسولُ الله ﷺ في خَيْف بني كنانة -ويقع اليوم في الجميزة حول مبنى أمانة العاصمة المقدسة- فصلَّى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء[٣]، فقالت له عائشة رضي الله عنها تلك الليلة: «يا رسولَ الله، يرجع الناسُ بعمرة وحجة، وأرجع أنا بحجة!»، تشير إلى أنها لم تأتِ بعمرة مستقلة قبل حجها، كما صنع بقية أزواج النبي ﷺ، وإنما كانت قارنة بسبب حيضتها، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «**يَسَعُكِ طَوافُكِ بِالبَيتِ لِحَجِّكِ وَعُمْرَتِكِ**». فأبتْ، وقالت: «يا رسولَ الله، ينطلق الناسُ بحج وعمرة وأنطلق بحج، ويرجع الناس بأجرين وأرجع بأجر واحد!»، قال: «**إِنَّ لَكِ مِثلَ مَا لَهُمْ**». قالت: «إني أجد في نفسي أني لم أطف بالبيت حتى حججت». وكان رسولُ الله ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هويت شيئاً تابعها عليه، فدعا أخاها عبد الرحمن، فقال: «**اخْرُجْ بِأُخْتِكَ إِلَى التَّنْعِيمِ، فَإِذَا هَبَطْتَ مِنَ الأَكَمَةِ فَلْتُهِلَّ بِعُمْرَةٍ، فَإِنَّهَا عُمْرَةٌ مُتَقَبَّلَةٌ، ثُمَّ افْرُغَا، ثُمَّ ائْتِيَا هَا هُنَا، فَإِنِّي أَنْظُرُكُمَا حَتَّى تَأْتِيَانِي**». ثم قال لها: «**إِنَّ لَكِ مِنَ الأَجْرِ قَدْرَ نَصَبِكِ وَنَفَقَتِكِ**». قالت: «يا رسولَ الله، ألا أدخل البيت؟»، تعني الكعبة. قال: «**اُدْخُلِي الحِجْرَ؛ فَإِنَّهُ مِنَ البَيْتِ**».

---

(١) ينظر في تحديد موقع المحصَّب: تعليق الشيخ عبد الملك بن دهيش على «أخبار مكة» للأزرقي (٢/ ٧٤٢).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (١٣٢٧)، و«سنن أبي داود» (٢٠٠٢).

(٣) «صحيح البخاري» (١٧٥٦).

قالت عائشة: «فأردفني عبد الرحمن خلفه على جمله، فإني لأذكر وأنا جارية حديثة السن أنعس، فيصيب وجهي مُؤَخَّرَة[١] الرَّحل[٢]، وكانت ليلة شديدة الحر، فكنتُ أَحْسِرُ خماري عن عنقي، فيتناول رجلي فيضربها بالراحلة، فقلتُ: هل ترى من أحد! فانتهينا إلى التنعيم، فأهللتُ بعمرة جزاء بعمرة الناس التي اعتمروا، ثم قدمتُ على رسول الله ﷺ وهو بالحَصْبة لم يبرح»، وأما رسولُ الله ﷺ فهَجَعَ هَجْعَةً في المحصَّب، حتى ذَهَبَ هَوِيٌّ من الليل، فاستيقظ في هَزِيعٍ الليل الآخر؛ ليسير بمَن معه إلى الكعبة؛ فيطوف طواف الوداع، فجاءته عائشة رضي الله عنها وهو في منزله من آخر الليل، فقال: «**هَلْ فَرَغْتُما؟**». قالت: «نعم». قال: «**هَذِه مَكَانُ عُمْرَتِكِ**»[٣].

وصارت عمرة عائشة رضي الله عنها هذه دليلاً للأمة على مشروعية العمرة للمكي، وأن مَن أدَّى العمرة وأراد أن يأتي بعمرة أخرى من الحل؛ فإن له ذلك، وما هي بأول بركات أمنا المباركة رضي الله عنها.

ثم نادى ﷺ بالرَّحيل في أصحابه، فلما أراد أن ينفر إذا زوجته صفية رضي الله عنها على باب خبائها كئيبة حزينة، وكانت قد حاضت، فقالت: «ما أراني إلا حابستكم». قال: «**أَمَا كُنْتِ طُفْتِ يَوْمَ النَّحْرِ؟**». قالت: «بلى». قال: «**فَلَا بَأْسَ انْفِرِي**»[٤]. فكانت سنة للمرأة إذا طافت طواف الإفاضة، ثم حاضت، سقط عنها طواف الوداع.

وشكت إليه أم سلمة رضي الله عنها أنها مريضة، ولا تستطيع الطواف مع الناس، فقال لها: «**إِذَا أُقِيمَتْ صَلَاةُ الصُّبْحِ فَطُوفِي عَلَى بَعِيرِكِ وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ**»[٥].

---

(١) مؤخَّرة الرحل: هي خشبة في آخرة الرحل، يستند إليها الراكب.
(٢) الرحل: مركب من خشب يوضع على ظهر البعير، وهو للبعير كالسرج للفرس.
(٣) «صحيح البخاري» (١٥٥٦، ١٧٨٨)، و«صحيح مسلم» (١٢١٣).
(٤) «صحيح البخاري» (١٧٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٢١١).
(٥) «صحيح البخاري» (١٦٢٦)، و«صحيح مسلم» (١٢٧٦).

نظرات الوداع:

ثم هبط ﷺ إلى الحرم ليطوف طواف الوداع، فدخل إلى المسجد الحرام، وطاف بالكعبة طواف الوداع سحراً، فلما قضى طوافه إذا نور الفجر قد صَدَعَ الأفق، فأُذِّن لصلاة الفجر، ثم صلَّى بالناس صلاة الصبح يترسل في قراءته بسورة الطور[١]، وكانت هذه آخر صلاة صلاها والكعبة وجاهه، وآخر نظرات تملتها عيناه من بيت الله المعظم الذي طالما تملته ونظرت إليه.

ثم خرج ﷺ من مكة من أسفلها من المكان المعروف بـ «الشبيكة»، وسلك طريق كُدى[٢]، ويعرف اليوم بريع الرسام، حتى نزل بذي طُوى[٣]، وهو المكان الذي نزل به عند دخوله مكة، حتى يتتابع إليه أصحابه، ويلحق به مَن تأخر عنه.

ثم سرب ﷺ من مكة، وسربت معه القبائل إلى بلادها، وتفرَّقت جموعها في فجاج الأرض، بعد ليال عشر عظيمة مشهودة، كانوا فيها مع رسول الله ﷺ، وما كانت هذه الجموع تدري أنه وهو يودِّعها كان يودِّع الدنيا، وأن أيامهم معه هي أيامه الأخيرة مع الحياة، وأنه قد أنهى مهمته على الأرض، وقضى ما عليه، وإنما هما شهران وأيام، ثم يلحق بالرفيق الأعلى والمحل الأسنى.

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٢٦)، و«صحيح مسلم» (١٢٧٦).
(٢) كدى: يعرف اليوم بريع الرسام، بين حارة الباب وجرول، وقد أزيل ضمن توسعة الحرم الأخيرة. ينظر: «معجم المعالم الجغرافية الواردة في السنة النبوية» (ص٢٦٢).
(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٧٦٩)، و«فتح الباري» (٣/ ٥٩٣).

مشاعر الوداع

أرى في خروج النبي ﷺ هذا من مكة حَشْداً من المشاعر والانفعالات تتعثَّر العبارات عندما تحاول وصفها.

يكفي أن تتخيَّل المشهد فيخفق القلب وتهيج المشاعر، أحاول أن أتخيَّل مشاعره ﷺ ذاك الصباح، فأتخيَّلها مزيجاً من المشاعر تمور في ذلك القلب الكبير المنير، هي مزيج من مشاعر الفرح بالإتمام ومشاعر اللَّوْعة بالوداع.

مشاعر الفرح بتمام النعمة، وكمال الدين، وبلاغ الرسالة، وإتمام النُّسك، والفرح بفضل الله ورحمته، والامتنان له على صدق موعوده، ولذا لَهِجَ بهذا الامتنان على ذِروة الصفا والمروة: «**لَا إِلَه إِلَّا اللهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَه**»[1].

كانت مشاهد حجة الوداع مشاهد صِدْقِ وعدِ الله لنبيِّه ﷺ، أَمَا وَعَدَه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾؟ فها هي مكة قد تمحَّضت لدينه، وها هي وفود القبائل قد جاءت معه من كل أنحاء الجزيرة مؤمنة به متَّبعة لهُداه، بعد أن جاء نصرُ الله والفتح، ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

كأنما أشعر بفرحه ﷺ بأمته، ولأمته يملأ قلبه ويَطْفِر على محيَّاه، والامتنان لربه بصدق الوعد وتمام النعمة يغمر مشاعره ويفيض سكينةً ورضاً على نفسه، فهو يسير على الأرض ومشاعره وأشواقه هناك في الملأ الأعلى!

وأتذوق لوعة الوداع حينما أتخيَّل رسولَ الله ﷺ وهو يخرج من طريق كُدى وجبال مكة تحجب بيوتها شيئاً فشيئاً، وخطوات راحلته تباعده عنها شيئاً فشيئاً، يخرج من مكة بلده الذي نشأ فيه وبُعث، مكة أحب بلاد الله إليه، وها هو اليوم يودِّعها، هل التفت إليها كما التفت قبل ثلاث سنين يوم خرج منها في عمرة القضية فنظر إليها نظرة الوداع وهو على الحَزْوَرة[(١)]؟ هل قال اليوم ما قاله تلك المرة: «**وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**»[(٢)]؟

لكن وداعه هذه المرة ليس ككل وداع، ها هو يخرج فيودِّع مكة، ويودِّع أهلها، ويوشك أن يودِّع الحياة عن قريب!.

ربَّاه! كيف كان شعوره ومشاعره حين خرج من مكة وهو يعلم أن هذا الوداع هو الوداع الأخير؟

كيف نظر إليها وهو يعلم أنها النظرة الأخيرة؟

كيف تداعت ذكريات مكة وهي خزانة حياته وبيت عمره، ففيها طفولته وصباه، فتوته وشبابه، رجولته وكهولته، قضاها في شِعابها ومضايقها، وجبالها وفجاجها، وحرمها وكعبتها، في كل هذه المرابع توزَّعت أيام عمره وأحداث حياته؟

---

(١) الحَزْوَرة: مرتفع يقابل المسعى، كان سوقاً من أسواق مكة، وكانت تُعرف بالقشاشية، ثمّ أزيلت في توسعات الحرم. ينظر: «معجم البلدان» (٢/ ٢٥٥)، و«معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية» (ص٩٨).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٣١٠٨)، و«جامع الترمذي» (٣٩٢٥).

بل ماذا كانت تقول جبال مكة التي كانت تُؤَوِّبُ معه؟ وماذا قالت أحجارها التي كانت تسلِّم عليه[١]؟ وماذا يقول ترابها الذي طالما حمل قدمه ماشياً، وتلقَّى وجهَه الكريم ساجداً؟ ماذا تقول دُروب مكة التي طالما مشى فيها وتقلَّب بين رِباعها؟

يا للوعة الوداع! فكيف بمَن يعلم أنه الوداع الذي لا لقاء بعده: «**لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُم بَعدَ عَامِي هَذَا**»[٢]؟

ما شعوره ﷺ وهو يخرج من مكة فينظر وهي آخر نظراته إليها، وآخر أيامه فيها، وآخر خطواته عليها؟

مَن يستطيع أن يحتشد لتلك الأحاسيس فيتصوَّرها ثم يصوِّرها؟ مَن يستطيع أن يتذوَّق هذه المشاعر ثم يصفها؟

أين في شعر الشعراء وبلاغة البلغاء ما يصف لنا هذا الوَجْد أو يقرِّبه؟

أمَّا نحن فيكفينا أن نتخيَّل المشهد فتخفق القلوب، وتهيج المشاعر، وتقترب حال من حال!

ليت شِعْري، ما شعور أهل مكة وهم يرون رَكْبَ رسول الله ﷺ خارجاً من بينهم مُصْعداً في طريق كُدى موجَّهاً إلى المدينة؟.

كيف كانت قلوبهم تخفق وعيونهم تنظر إلى الرَّكْب النبوي يتباعد عنهم، تسيل به الأباطح وتواريه الجبال؟

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٢٧٧)، و«جامع الترمذي» (٣٦٢٤).
(٢) ينظر: «جامع الترمذي» (٨٨٦).

ها هو يخرج من بينهم بعد أن أقام فيهم عشرة أيام، وكأن كلَّ يوم منها يعدل سنة من سنوات غيابه العشر عنهم، أهكذا بعد أن آمنوا به واتَّبعوه وأحبوه، وزَهَوْا به وافتخروا، وعَلِقت قلوبهم به حبّاً وتعظيماً، يرونه يخرج من بلدهم إلى حيث هاجر؟.

ماذا لو علموا أنه يودِّع مكة ويوشك أن يودِّع الحياة، وأن نظراتهم إليه في إشراقة هذا اليوم هي النظرات الأخيرة، وأن هذا الوداع هو الوداع الذي لا لقاء بعده!

وكما ودَّعته مكةُ وأهلُها، فقد ودَّعته الجموعُ التي أتت من أنحاء الجزيرة، وتفرَّقت الوفودُ التي صحبته من المدينة، فإنهم قدموا عليه فيها وساروا معه ليتأسَّوا به في حجِّهم معه، فلما فرغوا من نُسكهم نفرَ كلٌّ منهم في وجهه، وقصد تلقاء بلده، وسار مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار ومَن كانت ديارهم في وجهته تلك.

دفع ركبُ النبي ﷺ من مكة إلى المدينة تتلقَّاه الطريق التي أتى منها، تسيل بهم أباطحها، وتحفهم جبالها، ولهم مع رسول الله ﷺ دَوِيٌّ بالذكر كما كان لهم في مقدمهم ضَجِيج بالتلبية.

فكلما صعدوا شَرَفاً كبَّروا اللهَ، وكلما هبطوا وادياً سبَّحوا الله[1]، وكان إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة، يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات، ثم يقول: **«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ»**[2].

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٤٥٦٨)، و«صحيح البخاري» (٢٩٩٣).
(٢) «صحيح البخاري» (١٧٩٧)، و«صحيح مسلم» (١٣٤٤).

وكأنما كانوا يستشهدون جبال الأرض ووهادها على تعظيم الله وتنزيهه، ويعمرون فيافيها وقفارها بعبادة الله وذكره، وكأنما جبال الأرض وأحجارها وأشجارها تتجاوب مع تكبيرهم وتسبيحهم: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾.

على الغَدِير

فلما قطع في الطريق أربعة أيام ووصل إلى الجُحْفة -وهي دون منتصف الطريق إلى المدينة- أخذ ذات اليمين عن الطريق، وقصد إلى مكان غير بعيد عنها يسمَّى: «غَدِير خُمٍّ»، فيه نبع ماء على شفير وادٍ كثير الشجر، يناسب استراحة الرَّكْب واستظلالهم وارتواء ركابهم.

ولذا تفرَّق الصحابة بين ظلال الشجر يستريحون من وعثاء السفر وكلال المسير، حتى إذا زالت الشمس سمعوا النداء الصارخ فيهم: «**الصَّلَاةَ جَامِعَةً**»[1]، وهو نداء الفزع وحدوث أمر يُجمع الناس له.

وهُيِّئ لرسول الله ﷺ مكان خطبته، فكُنس له مكانٌ بين شجرتي سَمُر، ورُفع منه ما يتساقط عادة من شوك الشجر وأعواده، وأُلقي عليها كساء يُظلِّه؛ لشدة الحر ذلك اليوم، وجُمع له الناس، فرجع إليه مَن كان متقدِّماً، ولحق به مَن كان متأخِّراً.

فصلَّى الظهر، ثم قام فيهم خطيباً، فحمدَ اللهَ، وأثنى عليه، ثم وعظ وذكَّر، فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، هَلْ بلَّغتُ؟**». قالوا: نعم. قال: «**اللَّهُمَّ اشْهدْ، اللَّهُمَّ اشْهدْ، اللَّهُمَّ اشْهدْ**».

---

(١) بنصب «الصلاة» على الإغراء، و«جامعة» على الحال. ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٨/ ٨٠).

ثم قال: «**أَمَّا بَعْدُ، أَلَا يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي** عَزَّوَجَلَّ، **فَأُجِيبُ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ، أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ **فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، هُوَ حَبْلُ اللهِ، مَن اسْتَمْسَكَ بِهِ وَأَخَذَ بِهِ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ وَأَخْطَأَهُ كَانَ عَلَى الضَّلَالَةِ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**». فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: «**وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**».

ثم أخذ بيد عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأقامه، فقال: «**أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ؟**». قالوا: بلى. قال: «**أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ؟**». قالوا: بلى. قال: «**أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ؟**». قالوا: بلى. قال: «**أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ؟**». قالوا: بلى، نحن نشهدُ، لأنت أولى بكل مؤمن من نفسه. قال: «**فَإِنِّي مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ، فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ**»[1].

ربَّاه! كيف كان شعور عليٍّ ومشاعره وهذه الألوف حول رسول الله ﷺ، ولكنه هو أقربهم إليه وأدناهم منه؟!

ما شعور عليٍّ ويده في يد رسول الله ﷺ يرفعها أمام كل هذه الزحوف الألوف؟!

ما شعورُ عليٍّ ومشاعرُه وأذناه تتروَّى من قول الرسول ﷺ: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ، فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ**»؟!

عليك سلامُ الله يا أبا الحسن، فقد كان فضل الله عليك عظيماً، وحق لك أن تفرح بذلك وتسر؛ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وكان سبب هذه الخطبة والتأكيد على فضل عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وتعظيم حقِّه ووجوب موالاته: أن بعض الصحابة كان في نفوسهم شيء على عليٍّ، فتكلَّموا عنه في موسم الحج

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٨٤٧٩)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٨).

وبَلَغُوا بحديثهم رسولَ الله ﷺ، ونَقَمُوا عليه بعض ما عمله في ولايته على الجيش الذي أرسله رسولُ الله ﷺ إلى اليمن قبل الحج، فتصرَّف عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المغانم بما استنكره منه بعضهم وتكلَّموا فيه، وقد كان عليٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مجتهداً مصيباً في اجتهاده، متحرِّياً الحق والنَّصَف، فزكَّى النبيُّ ﷺ عملَه، وبيَّن فضلَه، وأَكَّد حقَّه، وكأنما أراد في هذا المقام أن يغسل تلك الشوائب من النفوس ويصفِّيها ويؤلِّف بينها قبل أن يصل المدينة.

ولقد صفت له النفوس وعَرفت له قدرَه ومنزلتَه، حتى قال بُريدةُ بنُ الحُصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فما كان أحدٌ من الناس بعد قول رسول الله ﷺ أحبَّ إليَّ من عليٍّ»[(١)].

وقال له عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هنيئاً يا ابنَ أبي طالب، فقد أصبحتَ وأمسيتَ مولَى كلِّ مؤمن ومؤمنة»[(٢)].

إنه موقف وفاء من رسول الله ﷺ لسابقة عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الإسلام يوم أسلم وقد تردَّد أناسٌ، وأقدم وقد أدبر آخرونَ، ثم كان إسلامه إيماناً يزداد يقيناً، وإقداماً يزداد مَضَاءً، وعطاؤه للدين ورسوله أعظم العطاء وأكرمه وأسخاه.

إنه حُسْن العهد من رسول الله ﷺ لعليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو القائل: «**إِنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ**»[(٣)].

وللشيعة الاثني عشرية رواية أخرى لحديث الغَدِير، وسياقهم لها يختلف بين مروياتهم اختصاراً وطولاً، وإجمالاً وتفصيلاً، ولكن هذه الروايات تتواطأ على قضية الوصية لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالإمامة، واستخلافه بعد رسول الله ﷺ، وأن الله أوحى

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٢٩٦٧)، و«صحيح البخاري» (٤٣٥٠).
(٢) ينظر: «مسند أحمد» (١٨٤٧٩).
(٣) ينظر: «مستدرك الحاكم» (٤٠)، و«شعب الإيمان» (٨٧٠١).

إلى نبيِّه ﷺ بذلك، وأمره بالبلاغ، وأن النبيَّ ﷺ خطب في غَدِير خُمٍّ، وأخذ بيد عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: إن عليَّ بنَ أبي طالب أخي ووصيي وخليفتي والإمام بعدي... اسمعوا له وأطيعوا...[1].

وأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين معه قد بايعوه كلهم على ذلك، بمَن فيهم أبو بكر وعمر وعثمان والمهاجرون والأنصار وغيرهم.

وأن مآل هذا العهد والوصاة أن نُكث العهد وأُخلفت الوصاة يوم وفاته ﷺ، فاغتُصب حقُّ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأُخلف عهدُ النبي ﷺ، ونُقض ميثاقُه، وتولَّى الخلافة قبل عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثلاثةٌ من أصحاب النبي ﷺ الذين بايعوا عليّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ في الغَدِير، حسب روايتهم هذه!

وهنا نتساءل: هل يتصوَّر أن كل هذه الحشود المجتمعة مع النبي ﷺ، وهم من قبائل شتَّى ونواحٍ شتَّى يتفقون على كتمان هذا العهد ونكثه وعدم الوفاء به؟!

إن كل سر جاوز الاثنين شاع، فكيف بمناشدة نبوية في خطبة عامة دُعي لها بنداء الفزع: «**الصَّلاةَ جَامِعَةً**»، وشدَّد فيها النبيُّ ﷺ العهد والعقد، ثم يتفرق هؤلاء في نواحيهم وعشائرهم، فلا يفشو الخبر ويشتهر، ولا يظهر النَّكير ممن حضر وسمع وقد رأى خلافه؟

كيف لم نسمع أن أحداً قام يعترض على ما جرى من استخلاف أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا أن القبائل حول المدينة جاءت تعترض أو تستوضح أو تستغرب؟

كل ذلك يبيِّن أنه لم يكن هناك ما يدعو للاعتراض ولا الاستغراب، وأنه ليس لديهم وصية ولا عهد سابق يدعوهم لاستنكار ما جرى!

---

(١) ينظر: «الغَدِير» للأميني (١/ ٢١٥).

وثمة دلائل أخرى يمكن إدراكها بالنظر المنصف المتطلِّب للحق[١]، واللهَ نسأل أن يهدينا لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، إنه يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم.

(١) ينظر: كتاب «حديث الغَدِير»، ففيه نحوٌ من سبعين دلالة تبيِّن حقيقة ما جرى في الغَدِير، ومزيدُ بسطٍ لخطبة الغَدِير وتداعياتها القبلية والبعدية، ومناقشة مفصَّلة لسياقها.

بقايا الطريق

ويسير الرَّكْب النبوي من غَدِير خُمٍّ، يتلقَّاه الطريق إلى المدينة، وأبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقرب أصحابه إليه وأدناهم منه.

وكأنما أرى الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في مسيره ذلك، **وأتساءل:**

هل تداعت الذكريات في خاطر أبي بكر وهو يسير مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهذه الجموع حوله؟

هل تذكَّر يوم سلك هذا الطريق ذاته مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قبل عشر سنين مهاجِرَيْن إلى المدينة وحدهما مستخفِيَيْن من الرَّصَد أمامهما ومن الطَّلَب خلفهما؟[(١)].

هل تذكَّر حين مر بقُدَيد سُراقةَ بن مالك وهو يعدو بفرسه خلفهما يريد أن يظفر بهما؟[(٢)].

هل تذكَّر وهو يمر بالمُشلَّل أمَّ مَعْبَد وخيمتها وشاتها؟[(٣)].

---

(١) ينظر: «مستدرك الحاكم» (٤٢٦٨)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٧٦- ٤٧٧).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦٥٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٠٩).

(٣) ينظر: «علل ابن أبي حاتم» (٢٦٨٦)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٣٦٠٥)، و«مستدرك الحاكم» (٤٢٧٤).

هل تذكَّر الصخرة التي أظلتهما، والغار الذي آواهما؟[١].

وهل تردَّد في سمعه صدى قول النبي ﷺ له: «**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا، يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»؟[٢].

كأن كل علامات الطريق ومعالمه تخاطبه وتقول: من هنا مررتم، وها هنا جلستم، وهذا الظل مقيلكم، وذاك السهل مبيتكم، هنا قال لك، وهناك قلتَ له!

هل تذكَّر الصِّدِّيق مسيره ذاك في مسيره هذا؟

أين هذا المسير من ذاك المسير؟

ما أقصر عشر سنين في عمر الزمن، وما أعظم الأحداث التي تدافعت فيها!

ها هو يسير اليوم مع رسول الله ﷺ وقد صدق اللهُ وعده ونصر عبده، وجاء نصرُ الله والفتح ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً.

هل تداعت الذكريات في وجدان شيخ الإسلام والمسلمين أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتذكَّر وهو يسير مع النبي ظاهرين في الأرض يوم سار معه يستخفيان في مسيرهما في هذا الطريق.

هل تذكَّر وهو يسير مع النبي ﷺ ومعه هذه الألوف الزاحفة، يوم سار مع النبي ﷺ في هذا الطريق ذاته والوجهة ذاتها وحدهما ليس معهما غيرهما: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾.

أحسب أن مشاعر الاغتباط والامتنان كانت تغمر قلب الصِّدِّيق ونفسه، وأن نعيم الامتنان لله كان يملأ وجدانه بما يتقاصر عنه كل نعيم تذوَّقه أهل الدنيا.

---

(١) هو جزء من قصة سُراقة بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتقدِّم آنفا.

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦١٥، ٣٦٥٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨١).

قرة عين للصِّدِّيق وهو يسير مع النبي ﷺ ويرى في مسيره ذلك بشائر حسن العاقبة وطيب المنقلب!

ثم ما هي أحاسيس المهاجرين ومشاعرهم، أما جاشت الذكريات في نفوسهم وهم يسيرون مع رسول الله ﷺ ظاهرين في الأرض؟

أما تذكَّروا في طريقهم هذا يوم خرجوا مستخفين من مكة يسربون منها أَرْسالاً يسيرون في هذا الطريق مهاجرين بدينهم وإلى رسولهم، تاركين بلدَهم وأموالَهم وقراباتهم إلى بلد لا مال لهم فيها ولا أهل؟

ما شعورهم وهم يعودون مع رسول الله ﷺ اليوم من مكة إلى المدينة، وكأنما يستعيدون مسيرهم الأول وهجرتهم الأولى؟ ولكن أين ذاك المسير من هذا المسير! ها هم يرون صدق موعود الله لهم، وكأني بهم يردِّدون في وجدانهم ومع خفقات قلوبهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

كيف هي أحاسيسهم وهم يتذوقون إكرام الله لهم، حيث ذكرهم في الملأ الأعلى فسمَّاهم وزكَّاهم فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾؟

كيف شعورهم اليوم وهم يرون النبيَّ ﷺ يحفظ لهم سابقتهم هذه فيقول لمَن حاول اللحاق بهم من بعدهم: «**لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ**». «**مَضَتِ الهِجْرَةُ لِأَهْلِهَا**»[1].

وهاهم اليوم يسيرون في طريق هجرتهم الذي سلكوه أول مرة، وكأن كل شواخص الطريق وشواهده ومعالمه تخاطب كلَّ واحد منهم وهو يسير فتقول له: أنت أنت من أهلها، ولن يلحق بكم غيركم، «**مَضَتِ الهِجْرَةُ لِأَهْلِهَا**».

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٨٣، ٢٩٦٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٥٣، ١٨٦٣).

تقاربت المدينة وقطع رسولُ الله ﷺ أكثر الطريق إليها، حتى إذا كان بالرَّوْحاء[١] لقي رَكْباً في الطريق، فسلَّم عليه، وقال: «**مَنِ القَوْمُ؟**». قالوا: المسلمون. قالوا: مَن أنت؟ قال: «**رَسُولُ الله**». فَفَزِعت امرأةٌ منهم فأخذت بعَضُدِ صبيٍّ لها فأخرجته من محفَّتها[٢] فقالت: يا رسولَ الله، ألهذا حجٌّ؟ قال: «**نَعَم، ولَكِ أَجْرٌ**»[٣].

وأعجب لهؤلاء الرَّكْب الذين سألهم النبيُّ ﷺ، فلم ينتسبوا إلى شيء مما ينتسب إليه الناس، لا إلى قبيلة ولا إلى وطن، على شدة عصبية العرب لقبائلهم وديارهم، وإنما انتسبوا إلى دينهم الذي آمنوا به واتَّبعوه.

وأعجب من سؤالهم رسولَ الله ﷺ: مَن أنت؟ فلم يكن لرسول الله ﷺ شارة تميِّزه، ولا هيئة ورسوم تخصُّه، ولكنه مع الناس بينهم، منغمر فيهم، قريب منهم، شأنَ إخوانه من أنبياء الله ورسله عليهم السلام: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾.

أما هذه المرأة فظاهرٌ من حالها أنها حجَّت بولدها الصغير معها، فلما لقيت النبيَّ ﷺ أرادت أن تستيقن أن حجَّها بصبيِّها صحيح.

وكم كانت فرحة هذه المرأة وبشراها يوم قال لها النبيُّ ﷺ: «**نَعَمْ**». ثم أتبعها ببشارة أخرى فقال: «**وَلَكِ أَجْرٌ**».

وسار الرَّكْب النبوي الشريف، حتى إذا دنا من المدينة نزل بذي الحُليفة في الوادي المبارك فبات بها، وذلك حتى لا يطرق المدينة ليلاً، وحتى يصل الخبر إلى أهل المدينة فيتهيَّأوا لاستقبال أهلهم الغائبين القادمين.

---

(١) هي مكان بين مكة والمدينة يبعد عن المدينة (٧٠ كم).

(٢) المحفَّة -بفتح الميم وكسرها-: شبه الهودج، إلاَّ أنها لا قبة عليها. ينظر: «مطالع الأنوار على صحاح الآثار» (٢/ ٣٣٧)، و«عون المعبود» (٥/ ١١٠).

(٣) «صحيح مسلم» (١٣٣٦)، و«سنن أبي داود» (١٧٣٦).

يا تُـرى كيف كـان شعور الأنـصـار تلك الليلة وقـد دَنَـوْا من مدينتهم ورسولُ الله ﷺ معهم؟

بل كيف كان شعورهم يوم سار النبيُّ ﷺ إلى المدينة ترافقه القبائل التي جاءت معه، وتودِّعه كل قبيلة إذا حاذت منازلها وأوشكت أن تفارقه؟ حتى أهل مكة ودَّعوه حين أراد أن يرحل منها، إلا هم فقد أَتَوْا معه من المدينة، وها هم يعودون به إليها.

أي غِبطة كانت تملأ نفوسهم وهم يسيرون مع رسول الله ﷺ، فيرون القبائل تتفرَّق في الأودية والشِّعاب ورسولُ الله ﷺ معهم في مسيرهم يدخل كل وادٍ دخلوه، ويسلك كل شِعْب سلكوه؟

هل تذكَّروا يوم قال لهم: «**لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِياً، وَسَلَكَ الأَنْصَارُ شِعْباً، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ**»[(١)]؟

هل تذكَّروا قوله ﷺ لهم يوم قَسَم غنائم حُنين، فأعطى المئات من الإبل ولم يعطهم منها: «**أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذهَبَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا وَتَذْهَبُونَ بِرسُولِ الله تَحُوزُونَهُ إِلى بُيُوتِكُم؟**»[(٢)]؟!

أين الإبل التي أُعطيت؟ أين الغنائم التي قُسمت؟ ذهبت كلها وبقي للأنصار قَسْمهم ونَصيبُهم رسولُ الله ﷺ، قرة عين لهم يوم قالوا: «رضينا برسول الله قسماً ونصيباً».

والله لشِسْعِ نعل رسول الله ﷺ يكون عندهم خير مما أُعطيَ غيرُهم وغَنِم.

وها قد أوشك الأنصار أن يدخلوا المدينة وتفرَّق الناس من حولهم ولحقوا بديارهم وبقي معهم رسول الله ﷺ يزفونه حتى أدخلوه بين بيوتهم وأولجوه دورهم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٣٣٣)، و«صحيح مسلم» (١٠٥٩).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٣٣٧)، و«صحيح مسلم» (١٠٥٩).

يا لله لمشاعر الأنصار ليلتهم هذه، كيف كانت تشع عيونهم وهم ينظرون إلى المدينة أمامهم، ثم ينظرون إلى رسول الله بينهم؟

كيف كانت الغِبطة والفرح تَطْفِر في قلوبهم وهم يتذكَّرون وعد رسول الله ﷺ وقد وعدهم فوَفَى لهم، وقال لهم فصدقهم: «**المَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ**»[1]؟

(١) «مسند أحمد» (١٠٩٤٨)، و«صحيح مسلم» (١٧٨٠).

صباح القدوم

فلما أصبح ﷺ توجَّه إلى المدينة فدخلها من طريق المُعَرَّس، وكان قد خرج من طريق الشجرة[١]، وبينهما وبين المدينة ستة أميال، إلا أن المُعَرَّس أقرب، وذلك على عادة النبي ﷺ في مخالفة الطرق، فقد خرج من المدينة من طريق ودخلها من طريق، كما دخل مكة من طريق وخرج منها من طريق.

ولا أحسب ذلك إلا إسعاداً لمَن يمر بهم، فيكون لكل من على الطريقين حظه من بركة مرور النبي ﷺ بهم[٢].

فلما أشرف على المدينة قال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**»[٣]. فما زال يقولها ﷺ حتى دخل المدينة، فلما استبانت له جدران المدينة حرَّك راحلته وأسرع؛ شوقاً إلى المدينة وحبّاً[٤].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٥٣٣)، و«صحيح مسلم» (١٢٥٧).

(٢) وفي حكمة مخالفة الطريق أقوال كثيرة، أوصلها الحافظ في «فتح الباري» (٢/ ٤٧٢- ٤٧٣) إلى عشرين قولاً، وينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٨/ ١٩٠).

(٣) «صحيح البخاري» (١٧٩٧)، و«صحيح مسلم» (١٣٤٤).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (١٨٠٢)، و«جامع الترمذي» (٣٤٤١).

وانفرط عقد الجمع الذين كانوا مع النبي ﷺ، وأسرع كلٌّ منهم راحلته تلقاء وجهة داره، وكان مشهد الرواحل وهي تعدو مسرعة وقد تفرَّقت وجهاتها وأسرع بها رُكَّابها مشهداً يضج بالفرح ويعلن البهجة، ولا يزال أهل المدينة إلى اليوم يسمون هذا المطلع: المفرِّحات؛ لما يَطْفِر على المسافرين من الفرح إذا وصلوها فأشرفوا على المدينة واستشرفت لهم.

تفرَّق الجمع الذين كان الطريق يجمعهم، كلٌّ تَخُب به راحلته إلى بيته، فقد سبقهم خبر قدومهم إلى بيوتهم، وهناك في كل بيت طعامٌ صُنع، وامرأةٌ تَزَيَّنت، وصِبيةٌ يرقبون الطريق بلهفة وفرح.

أما رسول الله ﷺ فقد قصد المسجد فدخله ضحًى، وكان إذا دخل المدينة بدأ بالمسجد فصلَّى فيه ركعتين، ثم يجلس للناس، فيسلِّم عليه مَن كانوا ينتظرونه فيه، ثم يدخل على أهله، فيبدأ ببيت فاطمة رضي الله عنها فيسلِّم عليها، ثم يأتي بيوت نسائه فيطوف عليهن[١]، وأما أهل المدينة فقد كانوا يتتابعون بعد إلى رسول الله ﷺ يسلمون عليه بقية اليوم وما بعده.

وكان ممن جاء للسلام عليه: أمُّ مَعْقِل رضي الله عنها[٢]، فلما سلَّمت عليه قال لها: «**يَا أُمَّ مَعْقِل، مَا لَكِ لَمْ تَحُجِّي مَعَنَا؟**». قالت: «يا رسولَ الله، لقد تهيَّأنا فهلك أبو مَعْقِل، وكان لنا جمل هو الذي نحج عليه، فأوصى به أبو مَعْقِل في سبيل الله». فقال: «**هَلَّا خَرَجْتِ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الحَجَّ فِي سَبِيلِ الله، فَأَمَّا إِذْ فَاتَتْكِ هَذِهِ الحَجَّةُ مَعَنَا فَاعْتَمِرِي فِي رَمَضَانَ، فَإِنَّهَا كَحَجَّةٍ**»[٣].

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٧١٦)، و«مستدرك الحاكم» (٤٧٣٧).

(٢) اختُلف في تعيين هذه المرأة، فقيل: أم مَعْقِل، وقيل: أم سِنان. ينظر: «غوامض الأسماء المبهمة» لابن بشكوال (١/ ١٣١-١٣٥)، و«الإصابة» (١٤/ ٥٣٠).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (١٧٨٢)، و«صحيح مسلم» (١٢٥٦).

ولك أن تتخيَّل وَقْع سؤال النبي ﷺ على أم مَعْقِل: «**مَا لَكِ لَمْ تَحُجِّي مَعَنَا؟**». كيف فقدها ومعه كل هذه الألوف الزاحفة؟ كيف فقدها وهو المشغول بشأن الناس كلهم؟ كيف فقدها ثم ها هو الآن يسألها؟

لا أستطيع أن أتخيَّل فرحها وزهوها بهذا السؤال، وشعورها باهتمام النبي ﷺ بها.

إنها البراعة النبوية في إشعار كل أحد بأهميته، حتى تجد امـرأة من عامة المسلمين مكانها من اهتمام النبي ﷺ وتفقده وسؤاله، فليس أحد في حياة النبي مغمور أو مهمَّش!

ويغلب على الظن أن وصول النبي ﷺ إلى المدينة كان في يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة، وكان بين خروجه من مكة، وخروجه من الدنيا ثمانون ليلة، فكانت حجته ﷺ هي الوداع المبارك لأمته، والختام الحسن لحياته.

فصلوات الله وسلامه وبركاته على هذا النبي العظيم، فما أكرمه على ربه، وما أعظم بركته على أمته.

وقرة عين للمهاجرين الذين تخلَّوْا عن الدنيا؛ ليكونوا مع رسول الله ﷺ فهاجروا معه، وها هم اليوم يتركون مكة كما تركوها ويعودون معه.

وقرة عين للأنصار الذين وقفوا في وجه الدنيا؛ ليكون رسول الله ﷺ عندهم، هنيئاً لهم ثِواؤُه عندهم وحبُّه ودعاؤه لهم.

والله، ما جمعهم اللهُ حوله في الدنيا على الإيمان إِلَّا ليجمعهم به في الجنة في منازل الصِّدِّيقين والشهداء.

واشوقاه والهفتاه لتلك الوجوه الرضية المرضية، ربَّاه إنا نحبهم ونتوسَّل إليك بحبهم فيك إِلَّا جمعتنا إليهم في جنتك.

مسار الكتاب

بين يدي توثيق مادة هذا الكتاب وعزوها إلى مصادرها الأصلية، يحسن التنبيه إلى خطة الاختيار للنصوص، ومنهج الصياغة، والذي راعيت فيه ما يلي:

١- إن الصياغة لسياقة أحداث حجته ﷺ هي ضميمة روايات أو أخبار متعدِّدة دُمجت في مساق واحد، من غير تفصيل لرواياتها أو التزام بنص بعينه من نصوصها، متأسِّياً في ذلك بسياقة الإمام الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما رَوى حديث الإفك عن عدد من شيوخه، فقال: «وكلُّهم حدَّثني طائفةً من حديثها، وبعضُهم أوعى من بعض وأثبتُ له اقتصاصاً، وقد وَعَيْتُ عن كل واحد منهم الحديثَ الذي حدَّثني عن عائشة، وبعضُ حديثهم يصدِّق بعضاً»[(١)]. ثم ساقه سياقاً واحداً.

وعلى ذلك طريقة الإمام ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «حجة الوداع»؛ حيث أدمج مروياته في طَليعة كتابه في نص وسياق واحد في نحو اثنتي عشرة صفحة، ثم جعل بقية الكتاب تفصيلاً له.

ولذا، فإن العزو في كل فقرة إلى مجموعة من المصادر الحديثية الجامعة، هو للنص الذي يكون سياقه متحصَّلاً من مجموعها، وإن كان مفرَّقاً بينها.

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٥٦٢٤)، و«صحيح البخاري» (٢٦٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٧٠).

٢- لا ألتزم لفظ الصحابي في روايته للحدث والواقعة، وإن كنتُ أتحرَّاه ما أمكن، ولكن قد أتصرَّف باللفظ بحدود ما يلزم به ربطه بالنصوص الأخرى، ودمجه مع مساق الأحداث.

أما اللفظ النبوي، فهو ما ألتزمه، ولا أتصرَّف فيه، إلا على سبيل الاختيار من الروايات، أو الجمع بينها؛ ليتحصَّل من مجموعها أوفى النصوص وأكملها.

٣- اجتهدتُ في هذا الكتاب في استيعاب النصوص الصحيحة ما أمكنني، وقد أورد روايات وأخباراً في سندها بعض الضعف، إذا كانت تأتلف مع سياق الأخبار الصحيحة، وليس في متنها نكارة ظاهرة، وذلك أن جمع الأخبار إلى بعضها يكشف عما يستنكر، ولا يأتلف مع جملة ما صح منها، وإن كان ظاهر إسناده الصحة أحياناً، كما أنه يجبر ضعف بعض ما ورد بإسناد فيه مقال لوجود شواهد لمعناه، أو لأن سياق الأخبار يقتضيه، أو لأنه يسد فجوة في سياق الأحداث، وليس في متنه ما يستنكر.

٤- يرد في أخبار كثيرة تحديد زمانها ومكانها مما يسهل وضعها في موضعها الصحيح من سياق حجته ﷺ، وهناك أخبار أخرى لم يرد معها ما يدل على زمانها أو مكانها، ولذا فإن ترتيبها في سياق الأحداث يحتاج إلى جَهْد واجتهاد.

وقد جَهِدت أن يكون كل خبر في سياقه الزماني والمكاني، بحسب ما يدل عليه لفظه ومجموع رواياته واتساقه مع بقية الأخبار، ولكن الجهد قد يقصر، والاجتهاد قد يخطئ، ولكن حسبي أني اجتهدت وما ألوت.

٥- وعندما عزمتُ على إعادة طبع الكتاب سنة (١٤٣٧هـ)، مع الزيادة عليه، قمتُ برحلة أخرى أكثر تحرِّياً على طريق الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بين المدينة ومكة، متتبِّعاً منازل الطريق منزلاً منزلاً، فسلكتُ فِجاجه، وصعدتُ شَرَفه، وهبطتُ وِهاده، واطَّلعتُ من ثناياه، ووقفتُ على معالم الطريق التي نُصبت في هذا المسار في أول خلافة

بني العباس، وهي نُصُب من حجارة ضخمة متساوية الأبعاد فيما بينها، بين كل نُصُب منها والذي يليه ألف وسبعمئة متر، ولا تزال شواهد منها قائمة في أماكنها، كما تعرَّض كثير منها للتجريف والإزالة.

وقد كنتُ في هذه الرحلة مع أخوين كريمين من أهل هذه الأماكن، خبيرين بهذا الطريق، أماكنه ومعالمه ومسالكه، هما الأخ الشيخ المؤرِّخ الجغرافي أحمد النعماني، من أهل الأَبْواء، والأخ الباحث الجغرافي الأستاذ عبد الحافظ القريقري، من أهل قُديد، وقد أفاداني في هذه الرحلة، وتحمَّلا وَعْثاء السفر ونصب الطريق، وكان السير في طرق وعرة غير ممهَّدة، فشكر الله لهما تعاونهما، وأعظم أجرهما.

ولقد تخيَّلت وأنا أسلك هذه المسالك تلك الجموع الغَفِيرة مع رسول الله ﷺ، وهي تنفذ من ثنايا وعرة ضيقة، وتقطع فيافي متباعدة مقفرة، وقرأت على صفحة الأرض عذابات السفر التي كان المسافرون يتحملون لأواءها يوم كان السفر قطعة من العذاب.

ورأيتُ الأماكن المشرَّفة بخطوات الرسول ﷺ، المعطَّرة بأنفاسه، والتي خُلِّد ذكرها؛ لأنها ارتبطت بذكره، فهذا سَرِف، وذاك كُراع الغَمِيم، وهذا لَحْي جَمَل، وذاك قُديد، وتلك هَرْشَى، وذاك كَدِيد.

من هنا سار، وهاهنا نزل، وهناك أشرف، وهنا هبط.

هنا تتراءى أطايفه، وتحكي تلك المعالم سيرته، وتروي خبره.

صلى الله وسلم وبارك عليه.

٦- قام أخي الشيخ محمود شعبان عبد المقصود، وأخي الشيخ نور الدين العطار بتخريج الأحاديث والأخبار وعزوها إلى مصادرها الأصلية، وقد بذلا في ذلك جهداً يُذكر فيُشكر، حتى يظهر الكتاب بهذا التخريج الموعب والتوثيق الدقيق، فشكر الله لهم نصحهم وجهدهم.

وبعدُ؛ فإني أشكر وأدعو لكل مَن اطَّلع على هذا الكتاب، ثم تكرَّم فأرسل لي تنبيهاً يكمِّل نقصاً، أو يَسُدُّ خللاً، أو يصحِّح خطأ، فالعلم رحم بين أهله، والمرء قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخوانه، ولا يزال كل علم يَجِدُّ لنا يذكِّرُنا بقول خالقنا: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

وأسأل الله لكل مَن سَرَى بصرُه في هذا الكتاب حتى بلغ هذه السطور، أن يهب له من محبة نبيه ﷺ ما ينال به كريم بشراه يوم قال: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[1].

كما أدعو ربي لكل مَن ذكرني بدعوة صالحة أن يستجيب له ما دعى ويؤتيه أفضل مما سأل، ويجمعني وإياه مع المتحابين بجلاله تحت ظل عرشه، يوم لا ظل إلا ظله، ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦١٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٦٤٠).

كتب للمؤلف

قصص نبوية

اليوم النبوي

الآثار النبوية

سنام الإسلام

سماء الذاكرة

حديث الغدير

القبر المقدس

الحياة النبوية

أماكن نبوية

التواصل مع المؤلف

Email

Website

YouTube

Facebook

TikTok

Telegram

Twitter

WhatsApp: (+)905467723779

فهرس الموضوعات

إهداء ٥
مقدمة ٦
إلى مكة ٨
أطياف الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ: ١٧
في طريقه معلِّماً ٢٠
وعثاء السفر: ٢٢
في مكة ٢٨
في فناء الكعبة: ٢٩
بين الصفا والمروة: ٣١
في الأبطح ٣٦
على صعيد عرفات ٤١
عند جبل الرحمة: ٤٦
إلى المشعر الحرام ٥١
يوم الحج الأكبر ٥٥
خطبة يوم النحر: ٥٨
في المنحر: ٦١
إلى الحرم: ٦٦

أيام منى ٦٩
يوم القَر: ٧١
رمي الجمرات: ٧٣
تداعي الذكريات: ٧٥
كان رجلاً سهلاً: ٧٦
نظرات الوداع: ٧٨
مشاعر الوداع ٧٩
على الغَدِير ٨٤
بقايا الطريق ٨٩
صباح القدوم ٩٥
مسار الكتاب ٩٨
فهرس الموضوعات ١٠٥